

الفصل الثالث والعشرين

فاطمة الزهراء (ع)

- فاطمة الزهراء (ع) والاحداث العظيمة. مراحل التحرك: 1- المطالبة بالحقوق: أ- النحلة. ب- دعوى الميراث. ج- سهم ذوي القربى. 2- الاجهار في المعارضة. 3- مقاطعة قريش. استشهادها (ع). فاطمة الزهراء (ع) والانوثة الدينية: 1- النظرية الدينية في الأنوثة. 2- معاني الأنوثة. 3- خصائص فاطمة الزهراء (ع). الأرض والسياسة في (فدك): 1- فدك: الارض. 2- فدك : الملكية.

فاطمة الزهراء (ع) والأحداث العظيمة

عاشت فاطمة الزهراء (ع) خلال احتضار ابيها رسول الله (ص) ووفاته (ص) اياماً صعبة وعصيبة. فقد افتقدت الاب الرحوم والني الخاتم (ص) والمصطفى الذي اختارته السماء رحمة للعالمين. فعندما «صارَت الى قبر ابيها (ص) وقفت عليه وبكت، ثم اخذت من تراب القبر فجعلته على عينها ووجهها ثم انشأت تقول :

ماذا على من شمّ تربة أحمد *** ان لا يشمّ مدى الزمان غواليا
صبّت عليّ مصائب لو انها *** صبّت على الايام عدن لياليا
ولها (ع) ترثي أباهما (ص)¹ :

اغبر آفاق السماء وكورت *** شمس النهار وأظلم العصران
والارض من بعد النبي كئيبة *** أسفاً عليه كثيرة الاحزان
فليبكه شرقُ البلاد وغربها *** ولتبكه مضرٌ وكلُّ يمان
وليبكه الطود الأشمّ وجوه *** والبيت ذو الاستار والأركان
ياخاتم الرسل المبارك صنوه *** صلّى عليك منزلُ القرآن

وبعدما رأت ما انتهت اليه وصية رسول الله (ص) حول ولاية الامام (ع)، واحداث السقيفة، بدأت تحركها السياسي ضد قريش التي اغتصبت ولاية الامر.

التحرك ضد قريش :

وكان ذلك التحرك قد مرّ بمراحل ثلاث :

الاولى : مطالبتها بحقها في فدك وسهم ذوي القربى.

الثانية : الاجهار في معارضتها استلام قريش الخلافة بعد النبي (ص).

الثالثة : مقاطعتها قريشاً حتى استشهادها (ع).

وكانت تلك المراحل متضافرة تساند بعضها بعضاً في اعلان مظلوميتها. خصوصاً الامر المتعلق

بانتهاك حرمة الولاية الشرعية.

¹ (الدر المنثور في طبقات ربات الخدور) - زينب بنت فوّاز ص 360.

المرحلة الاولى : المطالبة بالحقوق

واهم ما كان في يدها (ع) : فدك. وهي قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وقيل : ثلاثة. وفيها عين فوارة ونخيل كثيرة². وقصة فدك : ان رسول الله (ص) عندما انتهى من معركة خيبر «بقيت بقية من اهل خيبر تحصنوا، فسألوا رسول الله (ص) ان يحقن دمائهم ويسيرهم، ففعل. فسمع بذلك اهل فدك، فنزلوا على مثل ذلك. فكانت لرسول الله (ص) خاصة، لانه لم يوجف عليها بنخيل ولا ركاب»³.

وقد قال تعالى في كتابه الكريم : (وما افاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير. ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل...) ⁴. وفي رواية اخرى انه (ص) لما فرغ من خيبر قذف الله الرعب في قلوب اهل فدك، فبعثوا الى رسول الله (ص) فصالحوه على النصف من فدك⁵. فانزل الله تعالى على نبيه (ص) : (فآت ذا القربى حقه...) ⁶ ، ثم «اوحى اليه ان ادفع فدك الى فاطمة (ع)، فدعاها رسول الله (ص) فقال لها : يا فاطمة، ان الله أمرني ان ادفع اليك فدك. فقالت : قد قبلت يارسول الله من الله ومنك. فلم يزل وكلاؤها فيها حياة رسول الله (ص) فلما ولي ابو بكر اخرج عنها وكلاؤها...»⁷. فتقدمت الزهراء (ع) الى الخليفة الاول في مطالبتها بحقها بثلاث دعاوى : أ — النحلة. ب — الميراث. ج — سهم ذوي القربى.

أ — النحلة :

وهي قول الزهراء (ع) بان ابائها (ص) قد وهبها فدكاً في حياته (ص). ويستدل على ذلك ان فاطمة (ع) عندما كلمت ابا بكر حول موضوع فدك قال لها : «يا ابنة رسول الله، والله ما ورث ابوك ديناراً ولا درهماً، وانه قال : ان الانبياء لا يورثون. فقالت : ان فدكاً وهبها لي رسول الله (ص)...»⁸.

ويستدل ايضاً على ان فدكاً كانت بيد فاطمة الزهراء (ع) خلال حياة ابيها (ص)، ثم أنتزعت منها،

² (معجم البلدان) — ياقوت الحموي ج 4 ص 238.

³ (سنن ابي داود) ج 3 ص 218. رقم 3016. رواها ابو داود عن حسين بن علي العملي، عن يحيى ابن آدم، عن ابن ابي زائدة، عن محمد بن اسحاق، عن الزهري، عن عبد الله بن ابي بكر، وبعض ولد محمد بن مسلمة.

⁴ سورة الحشر: الآية 6-7.

⁵ (شرح نهج البلاغة) ج 16 ص 210.

⁶ سورة الروم: الآية 38.

⁷ (اصول الكافي) — كتاب الحجّة ج 1 ص 543 رقم 5 باب الفئء والانفال وتفسير الخمس. (والدر المنثور في التفسير بالمأثور) ج 4 ص 177.

⁸ (شرح نهج البلاغة) ج 16 ص 216.

قول امير المؤمنين (ع) في كتابه لعثمان بن حنيف : «بلى كانت في ايدينا فذك من كل ما أظلمته السماء، فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين. ونعم الحَكَمُ اللهُ، وما أصنع بفذك وغير فذك، والنفوسُ مظانها في غدِ جَدَثٍ، تنقطع في ظلمته آثارها، وتغيب أخبارها...»⁹.

فاطمة (ع) واحتجاج الخليفة الاول :

وتفصيل الامر، ان فاطمة (ع) احتجت على ابي بكر، فقالت له : «ان رسول الله اعطاني فذكاً. فقال : هل لك بيّنة ؟ فشهد لها عليّ وامِ اِبنِ، فقال لها : أفرجل وامرأة تستحقينها ؟»¹⁰. واحتجاج الخليفة بتلك الطريقة في غاية الغرابة. ذلك :

1 — ان فاطمة الزهراء (ع) لا يمكن ان تطالب الخليفة امرأ ليس لها. خصوصاً وهي العابدة الزاهدة التقية المعصومة. ودليل عصمتها امران :

الاول : طهارتها التي وُصفت في قوله تعالى : (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً)¹¹. والارادة الالهية هنا تدلّ على وقوع الفعل للشيء المراد.

الثاني : يدلّ على عصمتها قوله (ص) : «فاطمة بضعة مني، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله عز وجل». ولو كانت تقترف الذنوب لا يمكن ان يكون مؤذيتها مؤذياً لرسول الله (ص). فكان على الخليفة الاول تصديقها (ع).

2 — ان البيّنة التي يطلبها القاضي — على الاغلب — انما يُراد منها التغليب في الظن على صدق المدعى. ولاشك ان العدالة معتبرة في الشهادات لانها تؤثر في غلبة الظن. ولذلك أُجيز للحاكم ان يحكم بعلمه من غير شهادة، لان علمه اقوى من الشهادة.

وقد روي ان اعرابياً نازع النبي (ص) في ناقة. فقال (ص) : «هذه لي، وقد خرجت اليك من ثمنها». فقال الاعرابي : من يشهد لك بذلك ؟ فقال خزيمه بن ثابت : أنا أشهد بذلك. فقال النبي (ص) : «من اين علمت وما حضرت ذلك ؟». قال : لا. ولكن علمت ذلك من حيث علمت انك رسول الله. فقال (ص) : «قد اجزت شهادتك، شهادتين». فسُمي ذا الشهادتين¹².

وفيما نحن فيه، كان على الخليفة الاول الا يستظهر عليها (ع) بطلب شهادة او بيّنة. فهو يعلم مكانها

⁹ (فحج البلاغة) - كتاب رقم 45 ص 532.

¹⁰ (الصواعق المحرقة) - ابن حجر. الباب الثاني ص 31.

¹¹ سورة الاحزاب: الآية 33.

¹² (شرح فحج البلاغة) ج 16 ص 272-274.

في الدين وموقعها من رسول الله (ص).

3 — وقع الخليفة الاول في اول تناقض فقهي له بعد بيعة قريش له. فإن كانت فاطمة (ع) قد طالبت بفدك وتدعي ان ابها (ص) نخلها آياها احتاجت الى اقامة البيّنة، فلم يبق لقول ابي بكر المنسوب الى رسول الله (ص) : «نحن معاشر الانبياء لا نورث» من معنى. وإن كانت تطالب بميراث فلا حاجة بها الى الشهود. فالذي يستحق التركة لا يحتاج الى شاهد الا اذا كان نسبه مُنكراً او مجهولاً.

قال المعتزلي : «سألتُ علي بن الفارقي مدرس المدرسة الغربية ببغداد، فقلت له : أكانت فاطمة صادقة؟ قال : نعم. قلت : فلمَ لم يدفع اليها ابو بكر فدك وهي عنده صادقة؟ فتبسّم ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسنًا مع ناموسه وحرمة وقلة دعابته، قال : لو اعطاها اليوم فدكاً بمجرد دعواها لجاءت اليه غداً وادّعت لزوجها الخلافة، وزحزحته عن مقامه. ولم يكن يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء، لانه يكون قد أسجل على نفسه انها صادقة فيما تدعي كائناً ما كان من غير حاجة الى بيّنة ولا شهود. وهذا كلام صحيح، وإن كان اخرجه مخرج الدعابة والمزل»¹³.

4 — من اصول القضاء انه يجوز ان يقضي بيمين وشاهد. وقد روى ابو داود «ان رسول الله (ص) قضى بيمين وشاهد»¹⁴. فكان بإمكان الخليفة ان يفعل ذلك اقتداءً برسول الله (ص)، لكنه لم يفعل.

5 — ان جملة : «نحن معاشر الانبياء لا نورث» قد طبّقت فقط على فاطمة الزهراء (ع) فمُنعت من فدك، بينما لم يطبقوا القاعدة على زوجات النبي (ص) وبالخصوص عائشة ام المؤمنين. فعندما دخل رسول الله (ص) المدينة اراد شراء موضع المسجد من قوم بني النجار فوهبوه له. فكان بيتاً له ومسجداً، قال كتاب الله : (ياايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم...)¹⁵. ولم يكن لزوجه عائشة داراً بالمدينة ولا لايها ولا لعشيرتها لانهم من اهل مكة. ولم يروا انها بنت بيتاً لنفسها. ولكنها عندما ادعت حجرة النبي (ص) بعد وفاته حيث دفن فيها، صدقها ابو بكر وسلمها اليها بمجرد سكنها، او دعواها.

ومن المعلوم ان البيوت للازواج. فقد ورد في الذكر الحكيم : (ياايها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم، لا تخرجهن من بيوتهن ولا يخرجن الا ان يأتين بفاحشة مبينة...)¹⁶. والمراد ببيوتهن : البيوت التي كنّ يسكنها قبل الطلاق، أضيفت اليهن بعناية السكنى، لا الملك.

¹³ م. ن. - ج 16 ص 284.

¹⁴ (سنن ابي داود) ج 3 ص 419 باب القضاء باليمين والشاهد. باسناده عن ابن عباس وابي هريرة.

¹⁵ سورة الاحزاب: الآية 53.

¹⁶ سورة الطلاق: الآية 1.

احتجاج علي (ع) على الخليفة الاول :

بعد ان ادرك الامام (ع) ما فُعلَ في فدك من اخراج وكيل فاطمة الزهراء (ع) ونكراهم ملكيتها لفاطمة (ع)، اتى (ع) ابا بكر وهو في المسجد وحوله المهاجرون والانصار.
فقال (ع) : يا ابا بكر لِمَ منعت فاطمة ميراثها من رسول الله (ص) وقد ملكته في حياة رسول الله (ص)؟¹⁷

فقال ابو بكر : هذا فيء للمسلمين، فإن اقامت شهوداً ان رسول الله جعله لها، والا فلا حق لها فيه.
فقال الامام (ع) : يا ابا بكر تحكم فينا بخلاف حكم الله في المسلمين؟
قال : لا.

قال (ع) : فإن كان في يد المسلمين شيء يملكونه، ثم ادعيت أنا فيه من تسأل البيّنة؟
قال : أيّك اسأل البيّنة.

قال (ع) : فما بال فاطمة سألتها البيّنة على ما فيها في يديها. وقد ملكته في حياة رسول الله (ص) وبعده ولم تسأل المسلمين بيّنة على ما ادعوها شهوداً، كما سألتني على ما ادعيت عليهم؟
فسكت ابو بكر. فقال عمر : يا عليّ دعنا من كلامك فأنا لا نقوى على حججتك، فان أتيت بشهود عدول، والا فهو فيء للمسلمين لا حق لك ولا لفاطمة فيه.
فقال الامام (ع) : يا ابا بكر تقرأ كتاب الله؟
قال : نعم.

قال (ع) : اخبرني عن قول الله عز وجل : (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً)¹⁸ ، فيمن نزلت، فينا او في غيرنا؟
قال : فيكم.

قال (ع) : فلو ان شهوداً شهدوا على فاطمة بنت رسول الله (ص) بفاحشة ما كنت صانعاً بما؟
قال : كنت أقيم عليها الحدّ، كما أقيمه على نساء المسلمين.
قال (ع) : اذن كنت عند الله من الكافرين.
قال : ولم؟

¹⁷ لاحظ ان هذا السؤال من قبل الامام (ع) يحمل معنيين لم يدركهما الخليفة الاول. وهما: ان فاطمة (ع) لو كانت تملك فدكاً في حياة رسول الله (ص) لما اصبح ارثاً لها لانه ملكها لا ملك ابينا (ص). وإن كان ابوها (ص) مالكا له لوجب لها الارث.
¹⁸ سورة الاحزاب: الآية 33.

قال (ع) : لانك رددت شهادة الله لها بالطهارة، وقبلت شهادة الناس عليها، كما رددت حكم الله وحكم رسوله أن جعل لها فداً قد قبضته في حياته. ثم قبلت شهادة اعرابي بائل على عقبه عليها وأخذت منها فداً، وزعمت انه فيء للمسلمين. وقد قال رسول الله (ص) : «البينة على المدعي، واليمين على المدعى عليه». فرددت قول رسول الله (ص) ... قال [الراوي] : فدمدم الناس وانكروا ونظر بعضهم الى بعض، وقالوا : صدق والله علي بن ابي طالب (ع)...»¹⁹.

تداول فداك بين الايادي عدا فاطمة (ع) :

قال ابو الفداء في ذكر بعض ما نقم الناس على عثمان : «وأقطع مروان ابن الحكم فداً، وهي صدقة رسول الله (ص) التي طلبتها فاطمة ميراثاً، فروى ابو بكر عن رسول الله (ص) : نحن معاشر الانبياء لا نورث، ما تركناه صدقة. ولم تزل فداك في يد مروان وبنيه، الى ان تولى عمر بن عبد العزيز فانزعها من اهله وردها صدقة»²⁰.

واخرج البيهقي : «قال الشيخ : انما اقطع مروان فداً في ايام عثمان بن عفان وكأنه تأول في ذلك ما روى عن رسول الله (ص) : اذا أطعم الله نبياً طعمة فهي للذي يقوم من بعده وكان مستغنياً عنها بماله فجعلها لاقربائه ووصل بها رحمهم... وذهب آخرون الى ان المراد بذلك، التولية وقطع جريان الارث فيه. ثم تصرف في مصالح المسلمين كما كان ابو بكر وعمر يفعلان»²¹.

واشار ابن عبد ربه الاندلسي : «ومما نقم الناس على عثمان انه آوى طريد رسول الله (ص) الحكم بن ابي العاص... وقطع فداك مروان وهي صدقة لرسول الله (ص) وافتتح افريقية واخذ خمسة فوهبه لمروان»²².

ثم دارت الايام حتى جاء عصر المأمون - عبد الله بن هارون الرشيد- «فدفعها الى ولد فاطمة وكتب بذلك الى قثم بن جعفر عامله على المدينة : اما بعد فان أمير المؤمنين - يقصد المأمون- بمكانه من دين الله وخلافة رسوله (ص) والقراية به أولى من استن سنته، ونفذ أمره وسلم لمن منحه منحة وتصدق عليه بصدقة منحتة وصدقته، وبالله توفيق امير المؤمنين وعصمته واليه في العمل بما يقربه اليه رغبته. وقد كان رسول الله (ص) اعطى فاطمة بنت رسول الله (ص) فداك وتصدق بها عليها، وكان ذلك امراً ظاهراً معروفاً

¹⁹ (الاحتجاج) - الطبرسي ج 1 ص 90.

²⁰ (تاريخ ابي الفداء: المختصر في اخبار البشر) ج 1 ص 169.

²¹ (السنن الكبرى) - البيهقي ج 6 ص 301 باب بيان مصرف اربعة احماس الفيء بعد رسول الله (ص).

²² (العقد الفريد) - ابن عبد ربه ج 4 ص 283.

لا خلاف فيه بين آل رسول الله (ص). ولم تنزل تدعي منه ما هو أولى به من صدق عليه فرأى امير المؤمنين ان يردها الى ورثتها ويسلمها اليهم تقرباً الى الله تعالى باقامة حقه وعدله والى رسول الله (ص) بتنفيذ أمره وصدفته. فأمر باثبات ذلك في دواوينه والكتاب به الى عماله. فلئن كان ينادي في كل موسم بعد ان قبض الله نبيه (ص) ان يذكر كل من كانت له صدقة او هبة او عدة ذلك فيقبل قوله وينفذ عدته، ان فاطمة رضي الله عنها لأولى بأن يصدق قولها فيما جعل رسول الله (ص) لها.

وقد كتب امير المؤمنين الى المبارك الطبري مولى امير المؤمنين يأمره برد فدك على ورثة فاطمة بنت رسول الله (ص) بحدودها وجميع حقوقها المنسوبة اليها وما فيها من الرقيق والغلات وغير ذلك وتسليمها الى محمد بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب، ومحمد بن عبد الله بن الحسن ابن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب لتولية امير المؤمنين اياهما القيام بها لاهلها، فاعلم ذلك من رأي امير المؤمنين وما ألهمه الله من طاعته ووفقه له من التقرب اليه والى رسوله (ص)، واعلمه من قبلك. وعامل محمد بن يحيى ومحمد بن عبد الله بما كنت تعامل المبارك الطبري، وأعنهما على ما فيه عمارتها ومصالحتها ووفور غلاتها ان شاء الله، والسلام.

وكتب يوم الاربعاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة عشر ومائتين. فلما أُسْتُخِلَ المتوكل على الله، أمر بردها الى ما كانت عليه قبل المأمون»²³.

وهنا يثار تساؤل معقول، وهو : ان فدكاً لو كانت فيئاً للمسلمين، كما ادعاه ابو بكر، فما وجه تخصيصه بمروان ؟ وإن كان ميراثاً لفاطمة (ع) فما هو دخل الخليفة الاول والثالث في ذلك ؟ وإن كان نحلة من النبي (ص) لابنته (ع) فكيف يجوز هذا التصرف بملك الغير ؟ ان تضارب اعمال الخلفاء الثلاثة في امر فدك - حيث انتزعتها ابو بكر منهم (ع)، ورددها عمر اليهم، واقطعها عثمان لمروان - اكبر دليل على عدم كفايتهم في التعامل مع مصداق شرعي من مصاديق الولاية، وهو الملكية ودور ذات اليد فيها. وهكذا فشلت دعوى النحلة عند الخليفة الاول، فكان لابد من سلوك طريق المطالبة بميراث رسول الله (ص). فقد كانت فاطمة الزهراء (ع) البنت الوحيدة للنبي (ص).

ب - دعوى الميراث :

لما حاولت الزهراء (ع) بكل ما لديها من ادلة وفصاحة وعصمة في الدين اقناع الخليفة الاول بحقها في فدك، وابى ابو بكر ان يقبل منها ذلك، رأت ان تبسط الخصومة بطريق آخر وهو طريق الميراث. فان فدك

²³ (فوح البلدان) - البلاذري ص 46.

مما افاء الله به على رسوله (ص) فاذا لم تنتقل في حياته (ص) الى ابنته (ع)، حسب زعم ابي بكر، فلا بد ان تنتقل اليها بعد وفاته (ص) بالميراث.

فقلت في خطبة لها : «ايها المسلمون أغلب على إرثي ؟ يا ابن ابي قحافة، أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث ابي ؟ لقد جئت شيئاً فرياً. أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم ؟ اذ يقول : (وورث سليمان داود...)»²⁴ ، وقال فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا اذ قال : (...فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب...)»²⁵ ، وقال : (...وأولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله...)»²⁶ ، وقال : (يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين...)»²⁷ ، وقال : (...ان ترك خيراً الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقاً على المتقين)»²⁸.

وزعمتم ان لا حظوة لي ولا ارث من ابي، ولا رحم بيننا. أفخصكم الله بأية أخرج ابي منها ؟ ام تقولون : ان أهل ملتين لا يتوارثان ؟ او لست أنا وابي من اهل ملّة واحدة ؟ ام اتم اعلم بخصوص القرآن وعمومه من ابي وابن عمي ؟ «.

وكان جواب الخليفة الاول في غاية الاضطراب، فمرة كان يقول : «سمعتُ رسول الله (ص) يقول : ان الله اذا اطعم نبياً طعمة فهي للذي يقوم من بعده»²⁹. وقال في اخرى : «سمعتُ رسول الله (ص) يقول : انا معاشر الانبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»³⁰. وثالثة : «سمعتُ رسول الله (ص) يقول : ان النبي لا يورث، من كان النبي يعوله فأنا أعوله، ومن كان النبي (ص) ينفق عليه، فأنا أنفق عليه...»³¹. وقد انفرد ابو بكر برواية حديث : «نحن معاشر الانبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»³².

الرد على احتجاج الخليفة الاول :

1 — ان اختلاق حديث : «نحن معاشر الانبياء لا نورث...» يناقض آيات الارث الواردة في القرآن الكريم. فقد نص القرآن على ان الانبياء يورثون. وقد احتجت فاطمة الزهراء عليهم بالقرآن. قال تعالى :

²⁴ سورة النمل: الآية 16.

²⁵ سورة مريم: الآية 5-6.

²⁶ سورة الانفال: الآية 75.

²⁷ سورة النساء: الآية 11.

²⁸ سورة البقرة: الآية 180.

²⁹ (سنن ابي داود) ج 3 ص 198 رقم 2973.

³⁰ (تاريخ الخلفاء) - السيوطي ص 73.

³¹ (شرح منج البلاغة) ج 16 ص 219. قاله ابو بكر الجوهري.

³² (تفسير التعلبي) ص 352. (صحيح البخاري) ج 5 ص 177 باب غزو خيبر.

(وورث سليمان داود...) ³³ ، وفي خبر يحيى بن زكريا اذ قال : (...فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب...) ³⁴ وغيرها من الآيات القرآنية التي تثبت ان النبي يورث. وصريح القرآن يقتضي دخول النبي (ص) في آيات الارث مثل : (يوصيكم الله في اولادكم...) ³⁵ .

2 — لو كان حديث «نحن معاشر الانبياء لا نورث...» صحيحاً، ومقتضاه ان الانبياء (ع) لا يورثون، فكيف تم لزوجات النبي (ص) اخذ حجرات بيته (ص) من غير بيّنة ولا شهادة. ونسبة البيوت اليهن لا تقتضي الملك، بل ان العادة جارية فيها بانها تستعمل من جهة السكنى، ولذلك قال تعالى : (وقرن في بيوتكن...) ³⁶ ، و«...لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا ان يأتين بفاحشة مبينة» ³⁷ . فهنا اراد تعالى منازل الازواج التي يُسكنون فيها زوجاتهم، ولم يرد به اضافة الملك.

3 — وما نقض رواية نفي الارث ان «ابا بكر دفع الى علي (ع) آله رسول الله (ص) ورايته وحذاءه، وقال : ما سوى ذلك صدقة» ³⁸ . واختلف العباس وعلي (ع) في بغلة رسول الله (ص) وسيفه وعمامته، و«حكم بها - ابو بكر - ميراثاً لعلي (ع). ولو كانت صدقة لما حلّت على علي (ع)، فكان يجب على ابي بكر انتزاعها منه» ³⁹ . و«اذا كان النبي (ص) غير موروث، كيف سلّم البغلة والعمامة الى امير المؤمنين (ع) ؟ وكان ينبغي ان لا يعطيه اياه !! وكذلك البردة والقضيب كان يجب ان لا يتداولها الخلفاء!...» ⁴⁰ .

وعلى اي تقدير فقد فشلت دعوى الميراث باقناع الخليفة الاول بأحقية فاطمة (ع) بأرث ابيها. فكان لا بد من التقدم خطوة اخرى، والمطالبة بسهم ذوي القربى.

ج — سهم ذوي القربى :

«كان النبي (ص) يخص أقاربه بسهم من الخمس ويخص نفسه بسهم آخر، ولذا قسّم اموال خيرير، واعطى المسلمين حقهم، وجعل الكتيبة ⁴¹ خمس الله وخمس النبي (ص) وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين

³³ سورة النمل: الآية 16.

³⁴ سورة مريم: الآية 5 - 6.

³⁵ سورة النساء: الآية 11.

³⁶ سورة الاحزاب: الآية 33.

³⁷ سورة الطلاق: الآية 1.

³⁸ (الاحكام السلطانية) - لابي يعلى الحنبلي ص 202.

³⁹ (فج الحق وكشف الصدق) - العلامة الحلي ج 1 ص 127.

⁴⁰ (تلخيص الشافعي) - الشيخ الطوسي ج 3 ص 147.

⁴¹ الكتيبة: الجيش.

وابن السبيل»⁴². وقد قال تعالى : (واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسهُ وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل...) ⁴³. فكانت سيرته (ص) ان يختص بسهم من الخمس، ويخص اقاربه بسهم آخر منه.

ولما ولي ابو بكر اسقط سهم النبي (ص) وسهم ذوي القربى، ومنع بني هاشم من الخمس وجعلهم كغيرهم. فارسلت اليه فاطمة (ع) تسأله ان يدفع اليها ما بقي من خمس خيبر فابي ان يدفع اليها شيئاً. قال ابن ابي الحديد : «وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه، انه - اي الخمس - كان على ستة: لله وللرسول سهمان، وسهم لاقاربه، وثلاثة اسهم للثلاثة [المسكين والفقير وابن السبيل] ، حتى قبض (ص) فاسقط ابو بكر ثلاثة اسهم، وقسم الخمس كله على ثلاثة اسهم، وكذلك فعل عمر. وروى ان ابا بكر منع بني هاشم الخمس، وقال : انما لكم ان نعطي فقيركم، ونزوج أمائكم ونخدم من لا خادم له منكم...»⁴⁴.

وروى باسناده عن انس بن مالك «ان فاطمة (ع) أتت ابا بكر. فقالت (ع) : لقد علمت الذي ظلمتنا عنه اهل البيت من الصدقات، وما افاء الله علينا من الغنائم في القرآن من سهم ذوي القربى، ثم قرأت عليه قوله تعالى : (واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسهُ وللرسول ولذي القربى...) ⁴⁵. فقال لها ابو بكر : بابي أنتِ وأمي ووالدِ وكذالك، السمع والطاعة لكتاب الله، ولحق رسول الله (ص) وحق قرابته. وانا اقرأ من كتاب الله الذي تقرئين منه، ولم يبلغ علمي منه أن هذا السهم من الخمس يسلم اليكم كاملاً.

قالت (ع) : أفلك هو ولأقربائك ؟

قال : لا، بل انفق عليكم منه، واصرف الباقي في مصالح المسلمين.

قالت : ليس هذا حكم الله تعالى.

قال : هذا حكم الله، فان كان رسول الله عهد اليك في هذا عهداً أو أوجبه لكم حقاً صدقتك

وسلمته كله اليك والى اهلك.

قالت (ع) : ان رسول الله (ص) لم يعهد الي في ذلك بشيء، الا اني سمعته يقول : لما أنزلت هذه

الآية : «ابشروا آل محمد فقد جاءكم الغنى».

⁴² (تاريخ الطبري) ج 3 ص 19 ملخصاً.

⁴³ سورة الانفال: الآية 41.

⁴⁴ (شرح منج البلاغة) ج 12 ص 219.

⁴⁵ سورة الانفال: الآية 41.

قال ابو بكر : لم يبلغ علمي من هذه الآية ان أسلم اليكم هذا السهم كله كاملاً، ولكن لكم الغنى الذي يغنيكم، ويفضل عنكم. وهذا عمر بن الخطاب، وابو عبيدة بن الجراح فأسألهم عن ذلك، وانظري هل يوافقك على ما طلبت احدٌ منهم.

فانصرفت الى عمر، فقالت له مثل ما قالت لابي بكر، فقال لها مثل ما قاله لها ابو بكر، فعجبت فاطمة (ع) من ذلك، وتظنت انهما كانا قد تذاكرا ذلك واجتمعا عليه»⁴⁶.

وقد قيل⁴⁷ بان «منع فاطمة من الخمس كان اجتهاداً من قبل الخلفاء في جعل سهم ذوي القربى حقاً لهم من جهة الفقر وأجراهم مجرى غيرهم» انتهى قوله. ولكن هذا باطل، ذلك لان الاجتهاد لا يكون مقابل النص. ولم يُعرف عن رسول الله (ص) انه ابطل سهم ذوي القربى.

وهكذا حُرمت فاطمة (ع) ابنة المصطفى (ص) من جميع حقوقها، ولم يستجيبوا حتى لطلب من مطالبيها المدعومة بالادلة والحجج. وعندما ادركت (ع) ان الامر قد تجاوز حدود العقل والمنطق والدين، بدأت بالاجهار في معارضتها للنظام القرشي الجديد.

المرحلة الثانية : الاجهار في معارضتها :

وانصع امثلتها خطبتها الشهيرة في مسجد رسول الله (ص). فلما أوصدت الابواب امامها وحيل بينها وبين اخذ حقها، واجمع ابو بكر على منعها (ع) فدكاً «لائت خمارها»⁴⁸ على رأسها واقبلت في لمة من حفدها⁴⁹ تطأ ذيوها ما تخرم من مشية رسول الله (ص) شيئاً⁵⁰، حتى دخلت على ابي بكر وهو في حشد من المهاجرين والانصار فنيطت⁵¹ دونها ملاءة. ثم آنت آتةً أجهش القوم لها بالبكاء وارتج المجلس. فأمهلت حتى سكن نشيج القوم⁵² وهدأت فورهم. فافتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله (ص) فعاد القوم في بكائهم، فلما امسكوا عادت في كلامها.

فقالت: (لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف

⁴⁶ (شرح نهج البلاغة) ج 16 ص 230.

⁴⁷ قاله قاضي القضاة: القاضي عبد الجبار المعتزلي ونقله صاحب (شرح نهج البلاغة) ج 12 ص 211.

⁴⁸ اللوث: عصب العمامة، والخمار: ما يُستر به الانسان.

⁴⁹ اللمة: الصاحب والاصحاب في السفر، والحفدة: ابناء الابن.

⁵⁰ ما تخرم: ما تترك، بمعنى ان مشيتها كمشية ابها (ص).

⁵¹ نيّطت: علّقت.

⁵² من نشيج الباكي: اذا غص بالبكاء في حلقه.

رحيم⁵³ ، فان تعرفوه تجدوه ابي دون آبائكم واخا ابن عمي دون رجالكم فبلغ النذارة (اي الانذار)⁵⁴ صادعاً بالرسالة (اي مجاهراً بها) ، مائلاً عن مدرجة المشركين (اي عن مسلكهم) ، ضارباً لثبجهم⁵⁵ ، آخذاً بكظمهم⁵⁶ ، يهشم الاصنام، وينكت الهام، حتى هزم الجمع وولوا الدبر، وتغرى الليل (أي اسفر) عن صبحه ، وأسفر الحق عن محصنه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين⁵⁷ ، وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة (اي جرعة) الشارب ، ونهزة (فرصة) الطامع ، وقبسة العجلان⁵⁸ ، وموطىء الاقدام.

تشربون الطرق⁵⁹ ، وتقتاتون الورق، أذلة خاسئين، تخافون ان يتخطفكم الناس من حولكم، فانقذكم الله برسوله (ص) بعد اللتيا والتي، وبعد ما منى بهم الرجال⁶⁰ ، وذؤبان العرب (اي لصوصهم ومردتهم) ، ومردة اهل الكتاب. كلما حشوا (اوقدوا) ناراً للحرب اطفأها [الله] ، ونجم (ظهر) قرن للضلال ، وفغرت فاغرة من المشركين⁶¹ قذف بأخيه في لهواتها⁶².

فلا ينكفىء (يرجع) حتى يطاء صماخها بأخمصه⁶³ ، ويخذ لهبها بحده مكدوداً⁶⁴ في ذات الله قريباً من رسول الله، سيداً في أولياء الله، وانتم في بلهنية⁶⁵ وادعون آمنون.

حتى اذا اختار الله لنبيه دار انبيائه ظهرت خلة النفاق وسمل (رث) جلباب الدين ، ونطق كاظم الغاوين، ونبع حامل الآفلين، وهدر فنيق⁶⁶ المبطلين. فخطر في عرصاتكم⁶⁷ ، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه⁶⁸ ، صارخاً بكم فوجدكم لدعائه مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين⁶⁹ . فاستنهضكم فوجدكم خفافاً،

53 سورة التوبة: الآية 128.

54 وهو من انذره حذره وخوفه في ابلاغه.

55 النج: وسط الشيء ومعظمه وما بين الكاهل الى الظهر.

56 الكظم: مخرج النفس.

57 شقشقة: شيء يخرج البعير من فمه إذا هاج.

58 القبسة: مما تقيضه بيدك. تريد انهم كانوا ضعافاً مهانين يتخطفهم الناس.

59 الطرق: الماء الذي خاضته الابل وبالت فيه.

60 بهم الرجال: شجعانهم، جمع بهمة.

61 فغر فاه: فتحه.

62 اللهوات: جمع اللها، وهي اقصى الحلق.

63 الصماخ: داخل الاذن، والاعمص: اصبع القدم.

64 مكدوداً: من كد، وهو الجد والتعب.

65 بلهنية: مثل رفهنية، وهي غضاضة العيشة ونعيمها.

66 الفنيق: الجمال البازي القوي.

67 العرصات: ساحة الدور.

68 المغرز: الرقدة.

69 أي مغترين فيه.

واجمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم (اي علمتم) غير إيلكم، وأوردتموها غير شربكم⁷⁰.

هذا والعهد قريب، والكلم رحيب (اي الجرح واسع)، والجرح لما يندمل (يلتئم). انما زعمتم خوف الفتنة الا في الفتنة سقطوا⁷¹ وان جهنم لمحيطة بالكافرين. فهيهات منكم، وانى بكم، وانى تؤفكون⁷²، وهذا كتاب الله بين اظهركم وزواجره بينة، وشواهدة لاثحة، واوامره واضحة، أرغبة عنه تدبرون؟ ام بغيره تحكمون؟ بنس الظالمين بدلاً (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)⁷³.

ثم لم تريثوا الارث⁷⁴ أن تسكن نغرتها، تشربون حسواً وتسرون في ارتغاء، ونصبر منكم على مثل حزّ المدى، وانتم الآن تزعمون أن لا ارث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون⁷⁵ (...ومن احسن من الله حكماً لقوم يوقنون)⁷⁶. وفيها معشر المهاجرين أبتز إرث ابي؟ يابن ابي قحافة⁷⁷. أفي الكتاب أن ترث أبك ولا ارث ابي؟ لقد جئت شيئاً فرياً فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك. فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعود القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون. ولكل نبأ مستقر، وسوف تعلمون.

ثم انحرفت الى قبر النبي (ص) وهي تقول :

قد كان بعدك انباء وهنبة*** لو كنت شاهداً لم تكثر الخطب⁷⁸

انا فقدناك فقد الارض وابلها*** واحتل قومك فاشهدهم ولا تغب⁷⁹

قال : فما رأينا يوماً أكثر باكيةً ولا باكيةً من ذلك اليوم⁸⁰.

روى ابن ابي الحديد باسناده «لما سمع ابو بكر خطبتها شقّ عليه مقالتها، فصعد المنبر، وقال : ايها الناس ما هذه الرعة الى كل قالة ! أين كانت هذه الأمانى في عهد رسول الله (ص). ألا من سمع فليقل، ومن شهد فليتكلم. انما هو ثعالة شهيدُهُ ذنبُهُ، مُرَبِّ لكل فتنة، هو الذي يقول : كرّوها جذعة بعدما هرمت،

⁷⁰ تريد انهم اخذوا ما ليس لهم واعتصبوا حقوق غيرهم.

⁷¹ تشير الى ما كان منهم عند وفاة رسول الله (ص) حيث انصرفوا عن تغسيله الى تنصيب خليفة عليهم يلي امورهم بعد النبي (ص)، ولم يشغل بتكفينه إلا آل البيت (ع) وآخرون معهم.

⁷² ان: كيف. الافك: اشنع الكذب.

⁷³ سورة آل عمران: الآية 85.

⁷⁴ تريثوا: تبطلوا، اي لم تبطلوا عن منع الارث عنا، الا ريثما تم لكم أمر الخلافة دوننا فبدأتم بهذه ولينتم بتلك.

⁷⁵ كانت النساء لا يرثن في الجاهلية من الآباء وكان الكبير يرث ولا يرث الصغير وان كان ذكراً. وكانوا يقولون بالنسبة الى النساء لا تترك فرساً ولا تحمل كلاً ولا تنكا عدواً يكسب عليها ولا تكسب. نزلت الآية: (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قلّ منه أو كثر نصيباً مفروضاً) سورة النساء: الآية 7. (تأريخ الطبري ج 4 ص 263).

⁷⁶ سورة المائدة: الآية 50.

⁷⁷ تريد ابا بكر الخليفة.

⁷⁸ الهنبة: الامور الشديدة. والخطب: الخطوب أي الامور العظيمة.

⁷⁹ الوابل: المطر الغزير.

⁸⁰ (بلاغت النساء) ص 23. رواها احمد بن ابي طاهر باسناده. و(كشف الغمة) - الاربلي ج 1 ص 479 مفصلاً.

يستعينون بالضعفة، ويستنصرون بالنساء، كأُم طحال أحب أهلها إليها البغي. ألا ابني لو أشاء ان أقول لقلت، ولو قلت لبحت، ابني ساكت ما تركت.

ثم التفت الى الانصار، فقال: قد بلغني يامعشر الانصار مقالة سفهائكم، وأحق ممن لزم عهد رسول الله (ص) انتم فقد جئكم فأويتم ونصرتم، ألا أبني لست بأسطاً يداً ولا لساناً على من لم يستحق ذلك منا. ثم نزل، فانصرفت فاطمة (ع) الى منزلها.

قلت: قرأتُ هذا الكلام على النقيب ابي يحيى جعفر بن يحيى بن زيد البصري، وقلت له: بمن يعرض؟ فقال: بل يصرح. قلت: لو صرح لم أسألك. فضحك، وقال: بعلي بن ابي طالب (ع). قلت: هذا الكلام كله لعلي يقوله! قال: نعم، انه المُلْك يا بني. قلت: فما مقالة الانصار؟ قال: هتفوا بذكر علي (ع) فخاف من اضطراب الامر عليهم، فنهاهم. فسأته عن غريبه، فقال: اما الرعة بالتخفيف، اي الاستماع والاصغاء. والقالة: القول. وثعالة: اسم الثعلب، علم غير مصروف، مثل ذؤالة للذئب. وشهيدته: ذنبه، اي لا شاهد له على ما يدعي الا بعضه وجزء منه. وأصله مثل، قالوا: ان الثعلب اراد ان يغري الاسد بالذئب، فقال: انه قد أكل الشاة التي كانت قد أعدتها لنفسك، وكنت حاضراً. قال: فمن يشهد بذلك؟ فرفع ذنبه وعليه دم. وكان الاسد قد افتقد الشاة فقبل شهادته، وقتل الذئب. ومرب: ملازم أرب بالمكان، وكروها جذعة: أعيدوها الى الحال الاولى، يعني الفتنة والمهرج. وام طحال: امرأة بغي في الجاهلية، ويضرب بها المثل، فيقال: أزني من ام طحال»⁸¹.

المرحلة الثالثة: مقاطعة قريش حتى استشهادها (ع):

وبقيت فاطمة الزهراء (ع) بعد تلك الاحداث - والى جنبها علي (ع) - باكية العين محترقة القلب بوفاة رسول الله (ص). وكانت الصدمة، فيما حصل بعد الوفاة من احداث، عظيمة ومخزنة. فقررت مقاطعة قريش من الذين تولوا الامر بعد رسول الله (ص). قال ابن قتيبة الدينوري: «فقال عمر لابي بكر: انطلق بنا الى فاطمة، فانا قد اغضبناها فانطلقا جميعاً فاستأذنا على فاطمة فلم تأذن لهما. فأتيا علياً (ع) فكلماه فادخلهما عليها، فلما قعدا عندها، حولت وجهها الى الحائط فسلما عليها فلم ترد السلام.

فتكلم ابو بكر، فقال: يا حبيبة رسول الله، والله ان قرابة رسول الله احب الي من قرابتي، وانك لأحب الي من عائشة ابنتي، ولوددت يوم مات ابوك أبي مت ولا ابقى بعده. افتراي أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وامنعك حقك وميراثك من رسول الله. الا ابني سمعت اباك رسول الله (ص) يقول: لا نورث ما

⁸¹ (شرح فتح البلاغة) ج 16 ص 214.

تركناه صدقة.

فقلت (ع) : أرأيتكما ان حدثكما حديثاً عن رسول الله (ص) تعرفانه وتفعلان به ؟

قالا : نعم.

فقلت (ع) : نشدتكما الله، ألم تسمعا رسول الله (ص) يقول : رضى فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني، ومن ارضى فاطمة فقد ارضاني، ومن أسخط فاطمة فقد اسخطني ؟

قالا : نعم، سمعناه من رسول الله (ص).

قلت (ع) : فاني أشهد الله وملائكته انكما اسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي (ص) لأشكونكما اليه.

فقال ابو بكر : انا عائد بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة. ثم انتحب بيكي... وهي تقول : والله لادعون الله عليك في كل صلاة أصليها»⁸².

روى احمد بن ابي طاهر طيفور بسنده عن عطية العوفي قال : «لما مرضت فاطمة (ع) المرضة التي

توفيت بها دخل النساء عليها، فقلن : كيف اصبحت من علتك يا بنت رسول الله ؟

قلت (ع) : اصبحت والله عائفة (كارهة) لديناكم، قالية (مبغضة) لرجالكم، لفظتهم بعد ان عجمتهم (نبذتهم بعد ان جربتهم) ، وشننتهم بعد ان سرتهم (ابغضتهم بعد ان اخترتهم) . فقبحاً لفلول الحد (ثلم السيف) ، وخور القنا (كسر الرماح) ، وخطل الرأي (فساده) . وبئسما قدمت لهم انفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون. لا جرم⁸³ لقد قلدتهم ربقته⁸⁴ ، وشتت عليهم عارها⁸⁵ ، فجعداً وعقراً وبعداً للقوم الظالمين⁸⁶ .

ويجهم اني زحزحوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة، ومهبط الروح الامين، الطين (الخبير) بأمور الدنيا والدين . الا ذلك هو الخسران المبين. وما الذي تقموا من ابي الحسن⁸⁷ ، تقموا والله منه نكير سيفه⁸⁸ ،

⁸² (الامامة والسياسة) ج 1 ص 13 .

⁸³ اصله: لايد، أو لا محالة. وبعد كثرة الاستعمال تحول الى معنى القسم.

⁸⁴ أي قلدتم الخلافة مسؤوليتها.

⁸⁵ أي صبت عليهم عارها.

⁸⁶ الجدد: قطع الانف. والعقرب: ضرب قوائم البعير بالسيف ونحوه. ويراد بالجملة دعاء على من ارادت الدعاء عليه.

⁸⁷ كرهوا من علي (ع).

⁸⁸ صرامة سيفه.

وشدة وطأته، ونكال وقعته⁸⁹، وتنمره في ذات الله⁹⁰.

والله لو تكافئوا⁹¹ على زمام نبذهُ رسولُ الله (ص) لسار بهم سيراً سحجاً (سهلاً)، لا يكلم حشاشه⁹²، ولا يتعتع راكمه⁹³، ولأوردهم هلاً رويًا فضفاضاً⁹⁴ تطفح ضفتاه، ولا صدرهم بطاناً⁹⁵، قد تحرى بهم الري غير متحل منهم بطائل بعمله الباهر، وردعه سورة الساعب⁹⁶. ولفتح عليهم بركات من السماء وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون. الا هل من⁹⁷ فأسمعن وما عشتن أركان الدهر عجباً، الى اي لجا لجأوا واسندوا وبأي عروة تمسكوا؟ وليئس المولى⁹⁸ وليئس العشير.

استبدلوا والله الذنابي بالقوادم⁹⁹، والعجز بالكاهل¹⁰⁰، فرغماً لمعاطس قوم¹⁰¹ (يحبسون اثم يحسنون صنعاً الا اثم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)¹⁰²، ويجهم (أفمن يهدي الى الحق احق ان يتبع أمن لا يهدي الا ان يُهدى¹⁰³. فما لكم كيف تحكمون)¹⁰⁴.

اما لعمر الهكن¹⁰⁵ لقد لقحت¹⁰⁶ فنظرة ريشما تنتج¹⁰⁷، ثم احتلبوا طلاع العقب¹⁰⁸ دماً عبيطاً (طرياً)، وذعافاً مقرأ¹⁰⁹، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غب (عاقبة) ما اسس الاولون، ثم اطيوا عن أنفسكم نفساً، واطمئنوا للفتنة جأشاً (نفساً)، وابشروا بسيف صارم وبقرح شامل¹¹⁰، واستبداد من

89 النكال: من التنكيل.

90 أي غضبه لله.

91 تكافئوا: استواوا.

92 لا يجرح جانبه. والحشاش: عود يجعل في انف البعير يشد به الزمام.

93 أي من غير ان يصبه اذى، ومنه الحديث الشريف: (ويؤخذ للضعيف حقه غير متعتع).

94 يفيض منه الماء.

95 بطاناً: شعبي.

96 سورة الساعب: حدة الجائع.

97 هل من: تعالن.

98 المولى: الصاحب والجار.

99 الذنابي: الذنب، والقوادم: ريش في مقدم الجناح. والمراد اثم استبدلوا الذي هو ادن بالذي هو خير.

100 العجز: مؤخر الشيء. الكاهل: مقدم الظهر.

101 أي ذلاً لأنوفهم. وهو مجاز عن ذل انفسهم.

102 سورة الكهف: الآية 104.

103 المراد منه انه لا يهدي الانسان غيره الا اذا كان مهدياً، وإلا فكيف يعطي الشيء فاقده.

104 سورة يونس: الآية 35.

105 أي اما وحق يقاؤه.

106 لقحت: حبلت.

107 فنظرة ريشما تنتج: أي نظرة تأخير في الامر، وتنتج: تلد.

108 أي ملئوه.

109 يقال سم زعاف أي معجل الى الموت، والممقر: المر.

110 القرع: الدم، كناية عن فساد الامور.

الظالمين يدع فيكم زهيداً، وجمعكم حصيداً. فيا حسرة لكم، وأنى بكم، وقد عميت عليكم انلزمكموها واتم لها كارهون، ثم امسكت (ع)»¹¹¹ .

وعندما حضرتها الوفاة كتبت (ع) وصيتها ووضعها عند رأسها. يقول الخوارزمي: «وكشف علي (ع) عن وجه فاطمة فاذا برقعة عند رأسها فنظر فيها، فاذا فيها: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أوصت به فاطمة بنت محمد. أوصت وهي تشهد ان لا اله الا الله وان محمداً عبده ورسوله وان الجنة حق وان النار حق وان الساعة آتية لا ريب فيها، وان الله يبعث من في القبور. يا علي، انا فاطمة بنت محمد زوجي الله منك لاكون لك في الدنيا والآخرة، فانت أولى بي من غيرك، فحنّطني وكفّني وغسلني بالليل وصلّ عليّ وادفني بالليل ولا تُعلم احداً واستودعك الله واقراً على ولدي السلام الى يوم القيامة»¹¹² .

وقد روي ان فاطمة (ع) لما حضرتها الوفاة اغتسلت وتطهرت¹¹³ . وروي الخوارزمي باسناده عن اسماء بنت عميس: «ان فاطمة (ع) اوصت ان يغسلها زوجها علي، فغسلها هو واسماء بنت عميس، قال احمد بن الحسين: وهذا اشبه لان غسل الميت في مذاهب اهل العلم انما يجب بالوفاة فلا يقوم الغسل قبلها مقامه»¹¹⁴ .

وعندما دفنها زوجها (ع) قال: «ياارض استودعك وديعتي هذه بنت رسول الله...»¹¹⁵ . وقيل انها عاشت بعد النبي (ص) اربعين يوماً¹¹⁶ ، وقيل شهرين¹¹⁷ . وعلى اية حال، فقد استشهدت ولها ثمانين عشر سنة وخمسة واربعون يوماً¹¹⁸ على الارجح . دفنت ليلاً وصلى عليها علي (ع). ولا يزال قبرها مجهولاً الى اليوم، وكذلك يوم وفاتها.

عندما اكمل علي (ع) دفنها، وحاول ازالة آثار القبر «نفض يده من تراب القبر، هاج به الحزن، فأرسل دموعه على خديه، وحول وجهه الى قبر رسول الله (ص) فقال:

السلام عليك يا رسول الله مني، والسلام عليك من ابنتك وحببتك، وقرّة عينك وزائرتك والباثية في الثرى ببقعتك، المختار الله لها سرعة اللحاق بك. قلّ يا رسول الله عن صفتك صبري، وضعف عن سيدة

¹¹¹ (بلاغات النساء) ص 32.

¹¹² (مقتل الحسين) - الخوارزمي ج 1 ص 85 الفصل الخامس.

¹¹³ (حلية الاولياء) - ابو نعيم ج 2 ص 43.

¹¹⁴ (مقتل الحسين) - الخوارزمي ج 1 ص 82.

¹¹⁵ المصدر السابق ج 1 ص 85.

¹¹⁶ (نظم درر السمطين) - الزرندي ص 181.

¹¹⁷ (تاريخ دمشق) - ابن عساكر ج 1 ص 299.

¹¹⁸ (نظم درر السمطين) ص 181.

النساء تجلدي، الا ان في التأسي لي بسنتك، والحزن الذي حلّ بي لفراقك موضع تعزّ.
ولقد وسدتك في ملحود قيرك بعد ان فاضت نفسك على صدري، وغمضتكَ بيدي وتوليت امرك
بنفسي. نعم، وفي كتاب الله أنعم القبول، وانا لله وانا اليه راجعون. قد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة،
وأختلست الزهراء. فما أقبح الخضراء والغبراء يارسول الله.
اما حزني فسرمد، واما ليلي فمسهد، لا يبرح الحزن من قلبي، او يختار الله لي دارك التي فيها مقيم،
كمد مقيح، وهمّ مهيج، سرعان ما فرق بيننا والى الله اشكو. وستنبؤك ابنتك بتظافر امتك عليّ، وعلى
هضمها حقها، فاستخبرها الحال. فكم من غليل معتلج بصدرها لم تجد الى بته سبيلاً، وستقول وسيحكم الله
وهو خير الحاكمين.

سلام عليك يارسول الله، سلام مودع لاسأم ولا قال، فان انصرف فلا عن ملالة وان أقم فلا عن
سوء ظن. بما وعد الله الصابرين. والصبر أيمن واجمل، ولولا غلبة المستولين علينا، لجعلت المقام عند قبرك لزاماً،
والتلبث عنده معكوفاً. ولأعولت احوال الثكلى على جليل الرزية. فبعين الله تدفن ابنتك سرّاً، ويهتضم حقها
قهراً، وتمنع جهراً، ولم يطل العهد، ولن يخلق منك الذكر. فالى الله، يارسول الله، المشتكى، وفيك اجمل
العزاء، فصلوات الله عليها وعليك ورحمة الله وبركاته»¹¹⁹.

جوانب اخرى من مظلوميتها (ع) :

قال المقداد السيوري (ت هـ) : ان علياً (ع) لما «رأى تخاذلهم عنه، قعد في بيته واشتغل بجمع
كتاب ربه، وطلبوه للبيعة فامتنع، فأضرموا في بيته النار، وأخرجوه قهراً. ويكفيك في الوقوف على شكايته في
هذا المعنى خطبته الموسومة بالشقشقية في نهج البلاغة»¹²⁰.

فكيف تم ذلك والمسلمون يعلمون ان غضب فاطمة (ع) هو غضب رسول الله (ص) وسخطها (ع)
هو سخطه (ص). وقد قال تبارك وتعالى : (...وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا ازواجه
من بعده ابداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً)¹²¹ ، (ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا
والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً)¹²² ، (...والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم)¹²³ ، (ياايها الذين

¹¹⁹ (بشارة المصطفى لشيعته المرتضى) - محمد بن محمد الطبري ص 258 - 259. وتجد شطراً من هذه الخطبة في (نهج البلاغة) - خطبة رقم 202.

¹²⁰ (النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر) - المقداد السيوري ص 80.

¹²¹ سورة الاحزاب: الآية 53.

¹²² سورة الاحزاب: الآية 57.

¹²³ سورة التوبة: الآية 61.

آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم...»¹²⁴ ، (...ومن يجلل عليه غضبي فقد هوى)¹²⁵ .

لقد كانت فاطمة الزهراء (ع) حوراء صديقة على ما هو مقتضى الآيات الكريمة، كآية التطهير وآية المباهلة وسورة الدهر وغير ذلك. وقد صح عن الائمة الاطهار (ع) انها صديقة شهيدة. وفي تعبير الامام امير المؤمنين (ع) بعد دفنها : «وستنبؤك ابنتك بتظافر أمتك عليّ وعلى هضمها حقها، فاستخبرها الحال»¹²⁶ ما يؤيد ذلك .

قال الحق الفقيه الاصولي محمد حسين الاصفهاني (ت هـ) في منظومته :

إن حديث الباب ذو شجون *** مما جنت به يد الخؤون
ومن نبوع الدم من ثديها *** يُعرفُ عظم ما جرى عليها
والباب والجدار والدماء *** شهودُ صدق ما به خفاء

وحتى ان ابن تيمية (ت هـ) لم يجد مناصاً من الاعتراف ببعض الحقائق فاضطر الى ان يقول :
«وغاية ما يقال : إنه — يعني ابا بكر — كبس البيت لينظر هل فيه شيء من مال الله الذي يقسمه وأن يعطيه لمستحقه؟!»¹²⁷ .

وفي «اقبال الاعمال» اورد ابن طاووس زيارة الزهراء (ع) وقال : «المنوعة إرثها، المكسور ضلعها، المظلوم بعلها، المقتول ولدها»¹²⁸ .

وورد ان الامام الحسن (ع) خاطب المغيرة قائلاً : «أما انت يامغيرة : ...وانت الذي ضربت فاطمة بنت رسول الله (ص) حتى أدميتها، والقت ما في بطنها، استدلالاً منك لرسول الله، ومخالفة منك لأمره، وانتهاكاً لحرمة...»¹²⁹ .

قال مصنف «الاحتجاج» في مقدمة كتابه : «ولأنّي في اكثر ما نوره من الاخبار باسناده اما لوجود الاجماع عليه، او موافقته لما دلّت العقول اليه، او لاشتهاره في السير والكتب بين المخالف والمؤلف، الا ما اورده عن ابي محمد الحسن العسكري عليه السلام...»¹³⁰ .

وقد روي عن ابي بكر : انه ندم على أمور فعلها، وكان منها : «ليتني تركتُ بيت فاطمة لم

¹²⁴ سورة المتحنة: الآية 13 .

¹²⁵ سورة طه: الآية 81 .

¹²⁶ (بشارة المصطفى لشيعته المرتضى) - ص 258-259 .

¹²⁷ (منهاج السنة النبوية) ج 8 ص 291 .

¹²⁸ (اقبال الاعمال) - ابن طاووس ص 625 . و(بحار الانوار) ج 100 ص 199 .

¹²⁹ (الاحتجاج) ج 1 ص 414 . و(مرآة العقول) ج 5 ص 321 .

¹³⁰ (الاحتجاج) ج 1 ص 4 .

يقع بيت فاطمة الزهراء (ع) وعلي (ع) بجنب بيت النبي (ص). وفاطمة (ع) هي ابنته الوحيدة من خديجة بنت خويلد.

قال الشيخ الطوسي : «اختلف اصحابنا في موضع قبرها فقال بعضهم : انها دفنت في البقيع، وقال بعضهم انها دفنت بالروضة، وقال بعضهم : انها دفنت في بيتها. فلما زاد بنو امية في المسجد صارت في جملة المسجد. وهاتان الروايتان كالمتقاربتين. والافضل عندي ان يزور الانسان في الموضعين جميعاً انه لا يضره ذلك، ويحوز به اجراً عظيماً. وأما من قال انها دفنت في البقيع فبعيد عن الصواب».

فاطمة الزهراء (ع) والانوثة الدينية:

يُستند في ذكر فضل فاطمة الزهراء (ع) على قاعدة عصمتها. والقاعدة الشرعية تقول بان الله تعالى لا يضيّع عمل الانثى، تماماً كما لا يضيّع عمل الذكر، شرط ان يكون ذلك العمل تاماً (سليماً) من الناحية الشرعية. فالفضل هنا مشترك بين الذكور والاناث، ولا يتعين الا بعمل العامل في التقوى والعلم والعصمة. وثبات فضل الزهراء (ع) لم يتحقق الا بتحقيق تلك الخصال الجليلة التي تميزت بها خصوصاً في حمل صفات ايها المصطفى (ص)، وقوتها النفسية، وطهارتها الجسدية، وقوتها العقلية الفائقة.

1 — نظرة الدين الى الانوثة :

لو استقرأنا التأريخ البشري ودور الرجال والنساء فيه، لخرجنا بنتيجة مفادها ان الرجال كانوا دائماً وعلى الاغلب يسيطرون على مجرى الاحداث عن طريق السياسة والحرب والقتال والنشاط الاجتماعي. وكانت فكرة سيطرة الرجل وفضليته في المجتمع من جيل الى جيل تعدُّ من المسلّمات التي لا يمكن الاعتراض عليها.

واستمر وضع البشرية بهذا الشكل حتى انبثق نور الاسلام. وكان من الاشياء التي بشر بها الانسانية هو تقنين الافضلية في موارد معينة. فجعل القاعدة ان الاجر والثواب يصيب الكل، ذكوراً او اناثاً، اذا اهتموا الى الجادة. كما ذكر الكتاب المجيد : (...اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض)¹³².

وبذلك اعاد الاسلام للمرأة حقوقها المهذورة زمن الجاهلية، وجعل الذكر والانثى على حد سواء،

¹³¹ (تأريخ يعقوبي) ج 2 ص 137. و(تأريخ الاسلام) للذهبي ج 1 ص 388. و(العقد الفريد) ج 4 ص 268. و(مروج الذهب) ج 1 ص 414.

¹³² سورة آل عمران: الآية 195.

وجعل المفاضلة على أساس التقوى لا على أساس جنس الانسان. فقال : (ياايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم...) ¹³³ . وقال ايضاً: (...إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض...) ¹³⁴ . فالعمل الصالح غير مُضَيِّع عند الله تعالى، ذكراً كان العامل او انثى. وهذه الآية الكريمة قوية في التعبير الصريح عن المساواة في الحكم على الاعمال. بمعنى ان المرأة المؤمنة، المليئة علماً وعقلاً، الاسمى في الاخلاق اعلى درجة ممن لا يعادلها في ذلك من الرجال.

وفي سياق الآية السابقة آيات اخر توضح المطلوب، منها : (من عمل صالحاً من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ¹³⁵ ، (...ومن عمل صالحاً من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) ¹³⁶ ، (ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) ¹³⁷ .

ومن ذلك نستنتج بان عمل الذكر والانثى سواء في الاجر والثواب، ولكن للانثى ميزتان عن الذكر،

وهما :

الاولى : انزالها بمنزلة الحرث في تكوين البشرية ونمائها. فقال تعالى : (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم انى شئتم...) ¹³⁸ .

الثانية : ان تكوين الانثى الجسدي يميل الى الرقة والنعومة، والتعلق الشديد بالحلية والزينة. قال تعالى : (أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) ¹³⁹ .

وفي امتياز الانثى عن الذكر في تلك الموارد، تأثير على طبيعة الوظيفة الاجتماعية لكل منهما. فلكل وظيفة اجتماعية مخصوصة. والاعمال التي يؤديها كل منهما تنحصر بالملاك الذي اختص به من الفضل. قال في الذكر الحكيم : (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسئلو الله من فضله ان الله كان بكل شيء عليماً) ¹⁴⁰ .

فمن الفضل الذي اختص ببعض دون بعض هو فضل الرجل على المرأة في سهم الارث (يوصيكم الله

¹³³ سورة الحجرات: الآية 13.

¹³⁴ سورة آل عمران: الآية 195.

¹³⁵ سورة النحل: الآية 97.

¹³⁶ سورة المؤمن (غافر): الآية 40.

¹³⁷ سورة النساء: الآية 124.

¹³⁸ سورة البقرة: الآية 223.

¹³⁹ سورة الزخرف: الآية 18.

¹⁴⁰ سورة النساء: الآية 32.

في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين...) ¹⁴¹ ، وفضل المرأة على الرجل في وضع النفقة عنها (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض...) ¹⁴² . اما الفضل المشترك فهو الذي لا يتعين الا بعمل العامل كائناً من كان كفضل الايمان والعلم والتقوى والزهد والعقل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والى ذلك امرهم سبحانه : (...واستلوا الله من فضله...) ¹⁴³ .

2 – معاني الانوثة :

يمكن استخلاص معان ثلاثة للانوثة، وهي : المعنى الفلسفي، والاجتماعي، والديني. وتلك المعاني مستقراً من طبيعة تكوين الانسان، وطبيعة المجتمعات التي يعيش فيها، ومباني الرسالة السماوية التي قدمت له اسس الهداية والنور.

الاول : المعنى الفلسفي : وهو المعنى الذي يميز بين الذكور والاناث على اساس الفارق في الاعضاء الجسدية كاعضاء الحمل والولادة والرضاعة. والفوارق الفلسفية او التكوينية بين النساء والرجال في عالم الثبوت تؤثر تأثيراً بالغاً على سلوكهما وعلاقتهما الاجتماعية ووظيفتهما الشرعية والحياتية في عالم الاثبات. ولولا تلك القابلية على الحمل والولادة والرضاعة لما استمر البشر في العيش على وجه الارض. وتلك قضية طبيعية عمّت النساء جميعاً بما فيها فاطمة الزهراء (ع)، ومن قبلها مريم العذراء (ع) وزوجات الانبياء (ع) وبناتهم. والدين لا يتدخل في هذه القضية التكوينية الا فيما يخص إعجاز مريم البتول (ع) وحملها دون زوج. وأصل القضية امرٌ تكويني طبيعي. وفاطمة (ع) سارت على هذا الطريق. فقد كانت لها القابلية على الحمل والولادة والرضاعة، وهذه القضية التكوينية لا تتنافى مع الطهارة والكمال. ولكن هناك محتصات اخرى اختصت بها الزهراء (ع) لها علاقة بالطهارة وكمال التعبد نبحتها بعد قليل باذنه تعالى.

الثاني : المعنى الاجتماعي : وهو المعنى الذي يميز الاناث عن الذكور على اساس الضعف والقوة، ويرتب عليها ادواراً اجتماعية معينة. وهذا المعنى الاجتماعي الذي يفرّق بين الاناث والذكور مكتسبٌ من الثقافة الاجتماعية. وبتعبير آخر، ان الانوثة والذكورة يمكن تمييزها منذ الولادة، اما الضعف والقوة فانهما نتيجة مقدمات اجتماعية حول ضعف المرأة وقوة الرجل يفرضها التنقيف الاجتماعي.

ولو رجعنا الى فاطمة الزهراء (ع) ودرسنا معنى وجودها الاجتماعي، لتوصلنا الى ثلاث نتائج :

1 – ان فاطمة (ع) لم تنشأ في الحلية. بل نشأت في اجواء الوحي والنبوة والعلم والجهاد. وهذا ما

¹⁴¹ سورة النساء: الآية 11.

¹⁴² سورة النساء: الآية 34.

¹⁴³ سورة النساء: الآية 32.

يميزها عن بنات زمانها.

2 — عصمتها، وقوله : (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا)¹⁴⁴ يبعدها عن اهتمامات النساء في زمانها، ويجعلها رمزاً للطاعة.

3 — قوة موقعها الديني كان يقتضي من اعدائها محاربتها بنفس الشدة التي حورب بها زوجها علي(ع)، ومن قبله رسول الله (ص).

وقد يتداخل المعنى الفلسفي مع المعنى الاجتماعي في المجتمع القبلي فيسبب ارباكاً في الحقوق والواجبات. فبسبب ضعف المرأة التكويني يسلب المجتمع حقها في التملك مثلاً. وبسبب دقة عظمها ورقة لحمها، يتنكر القوم لموقعها السامي في الدين.

ولذلك رأينا في قراءة التأريخ الخاص بالبتول(ع)، انها عوملت من قبل العرب معاملة اقرب الى المعاملة القبليّة. بل كانت تلك المعاملة ابعد ما تكون عن تعليمات الدين الجديد، القاضية بتقدير الانثى على ضوء فضلها المشترك على حد سواء مع الذكور. وقد كانت(ع)، بسبب عصمتها، افضل من الذكور الذين لم يؤتوا مثل ذلك الفضل العظيم.

الثالث : المعنى الديني : فالمعنى الديني للانوثة يحدد سلوك المرأة، ومسؤولياتها، وامتيازاتها التي ينبغي ان تتمتع بها. وهو يشابه المعنى الديني للذكورة الذي يحدد سلوك الرجل، ومسؤولياته، وامتيازاته.

وقوله تعالى : (...إني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضهم من بعض...) ¹⁴⁵ يعني ان المرأة اذا كانت تمتلك درجة عالية من الايمان والعلم والعقل والخلق فانها اسمى درجة ممن لا يوازيها في ذلك من الرجال. وهذا المعنى مهم للغاية في تحليل شخصية فاطمة الزهراء(ع).

فقد كانت من اهل بيت العصمة(ع) الذين اراد الله سبحانه لهم التطهير من الرجس، بقوله : (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا)¹⁴⁶ . وكان ادراكها للدين وسلوكها الديني والاجتماعي اقرب الى الكمال، بل هو الكمال بعينه.

اذن، فاذا كان المعنى الاجتماعي للانوثة يظلم المرأة بسبب الفوارق الفلسفية، فان المعنى الديني للانوثة يصحح النواقص التي يجلبها ذلك الفهم الاجتماعي لتلك الفوارق. وكون الزهراء(ع) المرأة التي وصلت الكمال في الفهم الديني والاجتماعي، يدعوننا للتأمل في ان الاسلام ابدع في حق المرأة امرأ لم تكن تعرفه الدنيا

¹⁴⁴ سورة الاحزاب: الآية 33.

¹⁴⁵ سورة آل عمران: الآية 195.

¹⁴⁶ سورة الاحزاب: الآية 33.

ولا التأريخ من قبل.

3 — خصائص فاطمة الزهراء (ع) :

حملت البتول (ع) خصائص كمالية في غاية الأهمية. فهي بالاضافة الى علمها باصول المعارف الالهية، وادراكها للفروع الدينية والمواضيع الخارجية، وطاعة زوجها امير المؤمنين (ع)، فانها تسلحت بقوى ثلاث هي : قوة نقل الصفات الوراثية، القوة النفسية، القوة العقلية.

أ — نقل الصفات الوراثية :

حملت الزهراء (ع) مورثات ابيها المصطفى (ص) بصورة طبيعية. وهي مورثات تنقل القابلية الكامنة في البلاغة والشجاعة والمنطق والحكمة والكرم والتقوى والايمان والزهد. والمورثات او «الجينات» تجهز الجسم البشري بالمخطط الوراثي للنمو الجسدي والعقلي من الآباء الى الاولاد. وبتعبير آخر، فان «المورث» يحمل ما يمكن وصفه بـ «بصمة اهام» الاب الى ابنه او ابنته، مع اغلب الصفات الشخصية التي يحملها الاب. وبقيت صفات رسول الله (ص) تنتقل من جيل الى جيل في ائمة الهدى الاثنا عشر (ع) وذريتهم. والى ذلك صرح المولى عز وجل : (انا اعطيناك الكوثر)¹⁴⁷ ، مخاطباً رسول الله (ص) ومشيراً الى ذرية فاطمة الزهراء (ع) التي حملت صفات النبي (ص) الشخصية.

وقد روي عن النبي (ص) انه قال : «ان الله عز وجل جعل ذرية كل نبي في صلبه، وان الله عز وجل جعل ذريتي في صلب علي بن ابي طالب»¹⁴⁸ . وفي رواية اخرى : «يافاطمة، ما بعث الله نبياً الا جعل له ذرية في صلبه، وجعل ذريتي من صلب علي، ولولا علي ما كانت لي ذرية»¹⁴⁹ .

ولاشك ان الزهراء (ع)، بلحاظ النسب، قد حفظت الصفات الشخصية الموروثة للنبي (ص) عبر حملها «مورثات» ابيها (ص). واذا كان ابوها افضل رسل السماء الى الارض وصفاته واخلاقه من اكمل الصفات واتم الاخلاق، فلاعجب ان تحتل فاطمة (ع) المكانة الدينية العليا. بحيث ان صفاتها الكمالية اهرت الكائنات جميعاً. وينبغي ان لا نستغرب الروايات التي تحدثت عن عالم آخر غير عالمنا سعدَ بولادتها واستبشر بتكوينها.

فعن جابر مخاطباً ابي عبد الله (ع) قال : قلتُ : لم سميت فاطمة الزهراء «زهراء» ؟ فقال (ع) :

¹⁴⁷ سورة الكوثر: الآية 1.

¹⁴⁸ (كفاية الطالب) - الكنعي ص 379.

¹⁴⁹ المصدر السابق ص 379.

«لان الله عز وجل خلقها من عظمته، فلما اشرفت اضاءت السموات والارضين بنورها، وغشيت أبصار الملائكة، وخرت الملائكة لله ساجدين وقالوا: إلهنا وسيدنا، ما هذا النور؟ فأوحى الله اليهم: هذا نور من نوري أسكنته سمائي، خلقته من عظمتي، أخرجه من صلب نبي من انبيائي، أفضله على جميع الانبياء، وأخرج من ذلك النور ائمة يقومون بأمرى، يهدون الى حقي وأجعلهم خلفائي في ارضي بعد انقضاء وحيي».

وعن الامام الصادق (ع) ان خديجة (رض) عندما حملت بفاطمة (ع) لم تعلم جنس جنينها، فقال لها رسول الله (ص): «هذا جبرئيل يبشرني انها انثى، وانها النسمة الطاهرة الميمونة، وان الله — تبارك وتعالى — سيجعل نسلي منها، وسيجعل من نسلها ائمة الامة، يجعلهم خلفائه في ارضه بعد انقضاء وحيه»¹⁵⁰.

ب — القوة النفسية والطهارة الجسدية :

ان الهرمونات، وهي مواد كيميائية تفرزها بعض الغدد الصمّ فتزيد في نشاط الاعضاء التي تستقبلها عن طريق الدم، حقيقة من حقائق الانوثة. فتلك المواد العضوية تختلف في الجوهر والحجم في الانثى عنها في الذكر. ولذلك نلمس : تغير المزاج، وما يعترى النساء عادة كل شهر، وقضايا الرغبة في الجنس الآخر، امراً غالباً في الاناث دون الذكور.

الا ان الروايات التي تحدثت عن صفات فاطمة (ع) تذكر انها (ع) كانت ذو نفسية قوية، منقطعة لله سبحانه في العبادة والذكر، وعلى طهر دائم — على خلاف المعتاد عند النساء — ولا تشارك اهل زمانها في الرغبات.

ويمكن تصنيف الروايات الواردة حول ذلك الى ثلاث مجاميع :

المجموعة الاولى : انها كانت طاهرة دائماً : وهي الروايات التي اكدت على طهارتها مما يعترى النساء عادةً، وفيها سبع روايات :

1 — عنه (ص) : «وانما سُميت فاطمة (البتول) لانها تبتلت من الحيض والنفس»¹⁵¹.

2 — عن علي (ع) قال : «ان النبي (ص) سئل : ما البتول؟ فانا سمعناك — يارسول الله — تقول : ان مريم بتول، وفاطمة بتول؟ فقال (ص) : البتول التي لن تر حمرةً قط — اي التي لاتأتيها ما يأتي النساء عادةً — فان الحيض مكروه في بنات الانبياء»¹⁵².

3 — روي عن النبي (ص) : «سميت فاطمة بتولاً لانها تبتلت وتقطعت عما هو معتاد العورات في

¹⁵⁰ (بحار الانوار) ج 16 ص 80. و(دلائل الامامة) ص 8.

¹⁵¹ (ينابيع المودة) ص 260.

¹⁵² (معاني الاحبار) ص 64.

كل شهر، ولأنها ترجع كل ليلة بكرًا. وسميت مريم بتولاً لأنها ولدت عيسى بكرًا¹⁵³.

4 — عن ابي جعفر عن آبائه (ع) قال : «انما سميت فاطمة بنت محمد (ص) (الطاهرة) لطهارتها من كل دنس، وطهارتها من كل روث، وما رأيت قط يوماً حمرة ولا نفاساً»¹⁵⁴.

5 — عن الصادق (ع) قال : «ان الله حرّم النساء على عليّ ما دامت فاطمة حية، لأنها طاهرة لا تحيض»¹⁵⁵. والحرمة مقيدة بحياة البتول (ع) ومعللة بالطهارة والانقطاع لله سبحانه.

6 — قال (ص) : «الا إنّ مسجدي حرام على كل حائض من النساء وكلّ جنب من الرجال، الا على محمد واهل بيته : علي وفاطمة والحسن والحسين (ع)»¹⁵⁶.

7 — قال (ص) : «الا لا يحل هذا المسجد لجنب ولا لحائض الا لرسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين. الا قد بينت لكم الاسماء أن لا تضلّوا»¹⁵⁷.

والروايتان السادسة والسابعة رواهما البيهقي، وفيها دلالة على التغليب. فالحسن والحسين (ع) كانا صبيان لم يبلغا الحلم ولا يعرفا الجنابة، وفاطمة (ع) طاهرة عن الحيض. وانما أريد من الروايتين اظهار فضل هؤلاء الخمسة الاطهار على غيرهم.

ودلالة الروايات السبع هي انها كانت طاهرة. ولاشك ان الطهارة مقدمة من مقدمات العبادة. وفي ضوء ذلك، فان صلاتها وقرائتها للقرآن الكريم وتسيبها لله عز وجل كان يستوعب جلّ وقتها. المجموعة الثانية : انها كانت منقطعة عن الرجال. وفيها روايتان.

1 — قال ابن الاثير في «النهاية» : «وامرأة بتول : منقطعة عن الرجال لا شهوة لها فيهم، وبها سميت مريم أم المسيح (ع)».

2 — خطبتها في النساء عندما مرضت مرضتها الاخيرة، فقالت : «اصبحت والله عاتفة لديناكم، قالية لرجالكم، لفظتهم بعد ان عجمتهم، وشنتتهم بعد ان سبرتهم...»¹⁵⁸.

ودلالتها ايضاً على حسن كمالها، وانقطاعها لله سبحانه وتعالى.

المجموعة الثالثة : انها كانت لا تشارك نساء اهل زمانها في مطلق الرغبات الدنيوية. وفيها روايتان :

1 — قال الطريحي في «مجمع البحرين» : «والبتول فاطمة الزهراء بنت رسول الله (ص) قيل : سميت

¹⁵³ (احقاق الحق) ج 10 ص 25.

¹⁵⁴ (بحار الانوار) ج 43 ص 19.

¹⁵⁵ (بحار الانوار) ج 43 ص 16.

¹⁵⁶ (سنن البيهقي) ج 7 ص 65.

¹⁵⁷ المصدر السابق.

¹⁵⁸ (بلاغت النساء) ص 32.

بذلك لانقطاعها الى الله وعن نساء زمانها فضلاً وحسباً ودينياً».

2 — قال ابن منظور في «لسان العرب»: «سئل احمد بن يحيى عن فاطمة (رضوان الله عليها) بنت سيدنا رسول الله (ص) لِمَ قيل لها: البتول؟ فقال: لانقطاعها عن نساء اهل زمانها ونساء الأمة عفاً وفضلاً ودينياً وحسباً».

ودلالاتها ان الله سبحانه اكرمها بالانقطاع له والاعراض عن كل مغريات الدنيا وحطامها. وهنا اخذت صفات الكمال والطهارة كل توجهها وفكرها وعقلها. ولاشك ان الرغبات والشهوات هي لاهل الارض. اما اهل السماء، والزهراء (ع) هي الحورية الأنسية، فان لهم شأنٌ آخر في التعفف والانقطاع والذوبان في الخالق عز وجل.

ج — القوة العقلية :

ان التبع في خطب الزهراء (ع) بعد احداث السقيفة، ومطالبتها بحقها في فدك وسهم ذوي القربى، والاجهار في معارضتها استلام قريش للخلافة بعد النبي (ص)، وثباتها مع علي (ع) في امر الولاية، يعطي المرء صورة واضحة عن عصمتها وقوة ادراكها العقلي في الدين والاجتماع.

فتلك البلاغة والشجاعة الفائقتين من سيدة نساء العالمين (ع)، تعكس الادراك الكامل في الدين، واليقين في الرسالة وصاحبها (ص)، واليقين في ولاية الامام (ع) بعد وفاة رسول الله (ص)، فلاريب ان يضعها النبي (ص) في الموضوع اللائق بها، فيقول (ص): «فاطمة بضعة مني، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله عز وجل». وفي هذا دليل على انها كانت جزءاً من الرسول (ص) والرسالة، والنبي (ص) لم يكن ليقل انها بضعة منه، لو لم تكن كذلك. وعندما يقول النبي (ص): «فاطمة بضعة مني» فانما يُريد انها جزء منه تحمل صفاته وخصاله في العلم والحكمة والاخلاق والانقطاع لمولاهما عز وجل. وهذا كلام صادر عن المصطفى (ص)، عن الذي لا ينطق عن الهوى. ولا مفر للامة من الايمان به على سبيل القضية القطعية.

الارض والسياسة في «فدك»:

لم تكن فدك مجرد قطعة ارض تنازع حولها الفرقاء، بل كانت قضية دينية وسياسية وضعت الامر بين كفتي ميزان: الحق والباطل. واذا كان الموضوع قد دار — تأريخياً — حول طبيعة الملكية وشروط التملك، الا ان الاصل فيها — دينياً واجتماعياً — يذهب الى ابعاد من حدود الملكية والتملك.

1 - فدك : الارض

تعدُّ الارض جزءاً لا يتجزأ من حياة الانسان. ونقصد بالارض : المكان الذي يتضمن خصائص ومواصفات كنتلك التي كانت في فدك. فالارض ليست مجرد ذرات تراب، ولا مجرد مهبطاً زراعياً للانتاج. بل ان ما يهمننا في دراسة الارض، هو الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. ونظرة فاحصة الى فدك، تكشف لنا عن انها كانت ارضاً زراعيةً تمتلك مقومات الانتاج الوفير. فمن خصائص فدك والقضية التي ثارت حول تملكها :

1 - انها كانت فضاءً واسعاً ذو طبيعة خضراء، وشمس مشرقة، ومياه غزيرة، وتراب خصب. وبكلمة، فقد كانت فدك ارض زراعية من الدرجة الاولى من حيث عوامل : التربة والخصوبة والفضاء والشمس.

2 - كانت عاملاً من عوامل الانتاج الزراعي بحيث بلغت غلاتها....دينار، وكانت تشغل....عامل من العمال.

3 - كانت ملكاً، تملكه النبي (ص) بالطريق الشرعي. والملكية هنا اعتبارية امضاها الشارع.

4 - ان تلك الارض، يمكن ان تعدّ من الناحية الاقتصادية، رأسمالاً قوياً للمالك. فهي احد عوامل الانتاج الاقتصادي والقوة المالية.

5 - ان امتلاك الارض، في عرف العرب، يعني ان المالك تكون له يد عليا في العطاء ومساعدة الفقراء، دون الحاجة الى مد اليد للأخذ من الآخرين. فهنا يكون الملك استقلالاً اقتصادياً للمالك. فهي ضمان امني اقتصادي للمالك يضمن عدم حاجته للآخرين. ومن ملاحظة تلك العوامل جميعاً نلمس ان ارضاً كأرض فدك، كانت قوة سياسية اضافة الى كونها قوة اقتصادية ايضاً. ولذلك كانت الخشية من قبل قريش ان تُستثمر تلك القوة السياسية لزعزعتهم عن مقاعدهم.

والملكية في الاسلام يحميها القانون الشرعي على اساس قاعدة اليد او قاعدة الانتقال عن طريق الارث. بمعنى ان فدكاً لو لم تغتصبها قريش لبقيت بيد اهل البيت (ع) تنتقل من جيل لآخر بخيراتها وثوراتها التي كانت تشبع عدداً هائلاً من الفقراء والمحرومين.

لو استقرأنا التأريخ لاكتشفنا بان العامل الاقتصادي الاول في اي مجتمع، كان يتضمن : الارض الخصبة، والماء، والعمالة. واذا توفرت تلك الامور الثلاثة فان الانتاج من المحاصيل الزراعية سوف يشغل العمال، ويروي المجتمع بالخيرات، ويكون رأسمالاً مالياً يمكن ان يُستثمر في مختلف وجوه الخير والمنفعة.

وكانت فدك تمثل ذلك العامل الاقتصادي الذي يدرُّ بالخيرات دون تكلفة مالية. ولاشك ان القيمة الفعلية للارض لا تتحدد بالخصوبة فقط، بل بالموقع ايضاً. فموقع الارض له اهمية عظيمة في قيمتها. وقد قرأنا آنفاً ان فدكاً كانت قرية بالحجاز على بعد يومين عن المدينة وفيها عين فوارة ونخيل كثيرة¹⁵⁹. وهذا يعني ان محاصيلها يمكن ان تصل المدينة، ويستطيع في نفس الوقت عمالٌ من المدينة الهجرة اليها للعمل. فقد كانوا يسيرون في الليل البارد ويحطون رحالهم في النهار القائض. وبعض المحاصيل كالتمر والزبيب والحنطة والشعير يمكن حفظها وقتاً طويلاً. وانبساط ارض فدك يسهل امر النقل والانتقال والزراعة. فلم تكن فدكاً ارضاً جبلية صخرية او ارضاً قاحلة. ولو كانت كذلك لسرعان ما رُدَّت على فاطمة (ع).

بمعنى ان قيمة الخيرات التي كانت تنتجها فدك كانت تسوّق بشكل طبيعي في المناطق المجاورة. والا، لو افترضنا ان فدكاً كانت منطقة قاحلة نائية عن التجمع السكاني لما كانت لها تلك القيمة الاقتصادية والسياسية.

ان فدكاً ينبغي النظر اليها بالصورة التالية : فهي وإن كانت ملكاً لفاطمة (ع)، الا ان خيراتهما كانت ملكاً للمسلمين جميعاً خصوصاً الفقراء. ولانعلم اين كانت تذهب وارداًتها عندما اغتصبت من فاطمة (ع). والدعوى انهما كانت تذهب الى بيت المال، وليس هناك دليل تأريخي على ذلك. ولكنها عندما رُدَّت على ذرية الزهراء (ع) في بعض الفترات التاريخية، رجع ريعها يصبُّ لصالح الفقراء والمساكين. فالملكية اذن كانت رمزية من اجل ان تدار الثروات الواردة ادارة دينية على الطبقة الفقيرة.

يضاف الى ذلك ان هذا الملك الكبير بيد فاطمة الزهراء (ع) لا يعني انهما كانت تتمتع بخيراته، بل العكس هو الذي حصل. فخيرات فدك العظيمة كانت تصبُّ لصالح المسلمين. بينما كان علي وفاطمة (ع) لا يتناولان الا الخشن اليابس من اقراص الشعير.

2 - فدك : الملكية

ترتبط فكرة «الملكية» بالحقوق والإلزامات والامتيازات التي يقرها الدين للمالك. وتلك فكرة عامة تشمل اغلب انواع الملكية في التاريخ.

الا ان ملكية فاطمة الزهراء (ع) لـ «فدك» تختلف عن الفكرة العامة للملكية. ذلك ان تلك الملكية نقلت حالة التملك من حالة «امتياز الملكية» الى حالة «حق الملكية». وبتعبير اوضح ان فاطمة (ع) لم تكن

¹⁵⁹ (معجم البلدان) ج 4 ص 238.

لتفكر بامتيازات مادية تنهمر من ذلك التملك، بل ان «حق الملكية» يعني ان لها ان تدير الثروة الناتجة من ذلك التملك بما يوحيه عليها ادراكها الشرعي للمصالح الاجتماعية للمسلمين.

وبتعبير ثالث، ان فداً لو تملكها فرد من عامة الناس لاستفاد من امتيازاتها وثرواتها استفادة شخصية. ولكن المعصوم (ع) لو تملك فداً، فانه سوف يوزع الثروة الناتجة على فقراء المسلمين، ولا يقتني شيئاً لنفسه. فهنا اصبح امتياز الملكية من تملك فداً عند فاطمة الزهراء (ع) صفاً، بينما كان حقها في تملك الارض اي «حق الملكية» هو حق كامل بمقتضى احكام الشريعة.

ان الملكية الشرعية قضية قانونية يعترف بها الدين والمجتمع، لانها تضع حاجزاً بين الحقوق والحظوظ. فالحق يأتي عن طريق مشروع كالبيع والشراء والهبة والارث، بينما يأتي الحظ من طريق غير مشروع كالقمار والسرقه. ان ملكية الارض تختلف عن الانواع الاخرى للتملك. فاكساب المال مثلاً لون من الوان التملك. والانسان يستطيع ان يملك مالاً كثيراً. ولكن اهل البيت (ع) لا يستطيعون — بالفعل لا بالقوة — ان يملكوا المال ولا ان يزنوه. لان طبيعتهم مجبولة على العطاء والكرم واطعام الفقراء وطاعة الحكم الشرعي في الانفاق. فهذه الملكية لا تتحقق عند اهل البيت (ع).

ولكن ملكية الارض امرٌ آخر، فهي ملكية تدرُّ خيراً يمكن توزيعه على الفقراء والمساكين. وبمعنى آخر ان فداً كانت ملكاً مثالياً لاهل البيت (ع) لانهم كانوا ينفقون كل وارداتها على الفقراء ولا يبقى لهم الا اسم الملكية. وهنا تحققت ادارة الثروة الاجتماعية بافضل وجوها. فالملك (ع) امينٌ على ما يملك ولا يستفيد منه شيئاً، بل يوزع الثروة الناتجة من الملك على الفقراء والمساكين ويعتق بها العبيد والاماء.

ان تخصيص فداً من قبل رسول الله (ص) لفاطمة (ع) دون غيرها من الاراضي والقطاع يدعم النظرية التي ذكرناها، وهي انهم (ع) كانوا امناء على توزيع وارداتها على الفقراء والمساكين. فقد كانت فداً من افضل الاراضي الزراعية في الحجاز، وكان ثمرها من اغزر الثمار واجوده.

وبكلمة، فان ملكية فاطمة الزهراء (ع) لفداً كانت لها اهداف اخلاقية منسجمة مع مباني العصمة والطهارة التي قال فيهم القرآن الكريم: (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً)¹⁶⁰. فالتملك كان له ثلاثة ابعاد: فاطمة (ع)، وفداً، وفقراء الامة ومساكينها. بينما نلمس في اي تملك آخر بعدين: المالك، والمادة المملوكة؛ ولا تُعطى المادة المملوكة للناس الا بثمن، فترجع مادة مملوكة ثانية ولكن بصيغة اخرى. ولكن تملك اهل البيت (ع) كان يعني ادارة عادلة للثروة الاجتماعية الناتجة عن التملك.

¹⁶⁰ سورة الاحزاب: الآية 33.

ومن هنا نلاحظ ان فاطمة (ع) كانت تطالب بفدك من اعماق قلبها، لانها كانت ترى في ذلك التملك حقاً قد اُغتصب، ووسيلة لمساعدة الفقراء والمساكين قد سُلبت، وامراً سماوياً قد اُنتهكت حرمة.

3 — فدك : السياسة والدين :

واذا وضعنا قضية الملكية جانباً، واحذنا بالجانب الغيبي السماوي لقضية فدك. فاننا نستشعر ان نزول الوحي على رسول الله (ص) من اجل ان يدفع فدكاً لفاطمة (ع)، فيه تعظيم لمقام تلك البتول الطاهرة (عليها السلام).

والقصد من اصرار البتول (ع) على فدك هو ابلاغ الامة ان هناك من خالف رسول الله (ص) بعد وفاته، ونكث عهده، واغتصب الحق، وصدَّ اهله عنه. والى ذلك اشارت في خطبتها (ع) : «سرعان ما احدثتم ! وعجلان ما اتيتم ! الآن مات الرسول، فأتمت دينه. وتلك نازلة اعلن بها كتاب الله قبل موته (ص)، وانباكم بما قبل وفاته : (وما محمد الا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل، أفأن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً. وسيجزى الله الشاكرين)¹⁶¹».

¹⁶¹ سورة آل عمران: الآية 144.

الفصل الرابع والعشرين

حياة امير المؤمنين (ع) في عهد الخلفاء:
فترة الرصد والانتظار

مقدمة * نشاطات الامام (ع) سنة (11 _ 35 هـ): اولاً: العبادة والزهد. ثانياً: العمل السياسي: التقية.
ثالثاً: العمل القضائي: الاستشارة. رابعاً: العمل الكسبي: الزراعة * نبذة عن عهد الخلفاء الثلاثة.

مقدمة

تميّزت حياة الامام (ع) خلال فترة الترقّب والانتظار الممتدّة من السنة الحادية عشرة للهجرة وحتى السنة الخامسة والثلاثين منها، بنشاطات مختلفة في القدوة الدينية كالعبادات والقضاء والاستشارة والعمل الكسبي والزهد ونحوها. وقد توالى على السلطة في تلك الفترة ثلاثة خلفاء من قريش هم: ابو بكر (ابن ابي قحافة) (11 _ 13 هـ)، وعمر بن الخطاب (13 _ 23 هـ)، وعثمان بن عفان (23 _ 35 هـ).

نشاطات الامام (ع) (سنة 11 _ 35 هـ):

اذا كانت التقية التي عمل بها مولى الموحّدين قد منعتهم من الانشغال في مجريات الاوضاع السياسية السائدة آنذاك، فانها لم تمنعه من الذوبان في العبادة والدعاء والتفكّر في الله عزّ وجلّ، والزهد بكل ما يحمله من مشاق. ولم تمنعه ايضاً من العمل الكسبي في الزراعة وحرث الارض ونقل الماء. وكان (ع) سداً منيعاً في ردّ الشبهات، وكان المرجع في ارجاع المعارف العامّة الى شريعة سيد المرسلين (ص).

أولاً: العبادة والزهد:

كان الامام (ع) في تلك الفترة الحرجة يعيش أقصى حالات العبادة والزهد. يقول ابن ابي الحديد: «وأما العبادة فكان اعبد الناس واكثرهم صلاة وصوماً، ومنه تعلّم الناس صلاة الليل وملازمة الاوراد وقيام النافلة...»¹⁶². وإذا تأملنا دعواته ومناجاته ووقفنا على ما فيها من اجلال المولى عزّ وجلّ، لعرفنا ما انطوت عليه نفسه من القطع واليقين بالله والاخلاص له سبحانه وتعالى.

وكانت صلواته (ع) مطابقة لصلاة رسول الله (ص)، فليس فيها من البدع شيئاً، والى ذلك تشير رواية مطرف بن عبد الله، قال: «صليت انا وعمران بن حصين خلف علي بن ابي طالب فكان اذا سجد كبر، واذا رفع رأسه كبر، واذا نهض من الركعتين كبر. فلما انصرفنا اخذ عمران يدي فقال: لقد صلّى صلاة محمّد، ولقد ذكرني صلاة محمّد (ص)»¹⁶³.

وفي زهده (ع) قيل: «واما زهده رضي الله عنه فهو من الامور المشهورة التي اشترك في معرفتها الخاص والعام. واما ما روينا عنه في مسند الامام احمد بن حنبل رحمه الله وغيره انه رضي الله عنه قال: لقد رأيتني وأني لأربط الحجر على بطني من الجوع، وان صدقتي لتبلغ اليوم اربعة آلاف دينار، وفي رواية اربعين الف

¹⁶² «شرح منج البلاغة» ج 1 ص 9.

¹⁶³ «انساب الاشراف» ص 180 حديث 210. رواه البلاذري باسناده عن مطرف بن عبد الله.

دينار. فقال العلماء رحمهم الله: لم يرد - رضي الله عنه - به زكاة مال يملكه، وإنما اراد الوقوف التي تصدق بها وجعلها صدقة جارية، وكان الحاصل من غلتها يبلغ هذا القدر. قالوا: ولم يدخر رضي الله عنه قط ما لا يقارب هذا المبلغ ولم يترك حين توفي الا ستمائة درهم. وروينا انه كان عليه ازارٌ اشتراه بخمسة دراهم»¹⁶⁴.

فلا ريب ان يسمع عمار بن ياسر (رض) قول رسول الله (ص): «يا علي، ان الله تعالى زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب الى الله تعالى منها، هي: زينة الابرار عند الله عز وجل، الزهد في الدنيا فجعلك لا ترزأ¹⁶⁵ من الدنيا شيئاً، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً، ووهب لك حب المساكين، فجعلك ترضى بهم اتباعاً ويرضون بك اماماً»¹⁶⁶.

وروي ايضاً ان علياً (ع) عوتب «على تقلله في الدنيا وشدة عيشه، فبكى وقال: كان رسول الله (ص) يبست الليالي طاوياً وما شيع من طعام ابدأ. ولقد رأى يوماً ستراً مؤشئاً على باب فاطمة (رض) فرجع ولم يدخل وقال: ما لي ولهذا؟ غيبوه عن عيني، ما لي وللدنيا. وكان يجوع فيشد الحجر على بطنه، وكنت اشده معه. فهل أكرمه الله بذلك أم أهانه؟ فإن قال قائل: أهانه كذب ومرق. وان قال: أكرمه فيعلم ان الله قد أهان غيره حيث بسط له الدنيا وزواها عن اقرب الناس اليه واعزهم عليه حيث يخرج منها خميصاً، وورد الآخرة سليماً، لم يرفع حجراً على حجر ولا لبنة على لبنة. ولقد سلكنا سبيله بعده. والله لقد رقت مدرعتي هذه حتى استحيت من راقعها. ولقد قيل لي: ألا تستبدل بما غيرها؟ فقلت للقائل: ويحك اعزب، فعند الصباح يحمد القوم السرى»¹⁶⁷.

روى احمد باسناده عن ابي مليكة قال: «لما ارسل عثمان الى علي رحمة الله عليهما في التعاقب وجدته متزراً بعبائة محتجراً بعقال وهو يهناً بعيراً له»¹⁶⁸.

وروى ايضاً باسناده عن عمرو بن قيس، قال: «قيل لعلي (ع) لم ترقع قميصك؟ قال: يخشع القلب ويقتدي به المؤمن»¹⁶⁹.

وقال المعتزلي: «قيل لجعفر بن محمد (ع): ان قوماً ها هنا ينتقصون علياً (ع). قال: بم ينتقصونه...؟ وهل فيه موضع نقیصة؟ والله ما عرض لعلي (ع) أمران قط كالأهمل طاعة الله عمل بأشدّهما وأشقهما عليه. ولقد كان يعمل العمل كأنه قائم بين الجنة والنار، ينظر الى ثواب هؤلاء فيعمل له، وينظر الى عقاب هؤلاء

¹⁶⁴ («معارج العلى في مناقب المرتضى» - محمد صدر العالم. ص 197. مخطوط.

¹⁶⁵ (ترزأ: من الرزية أي المصيبة. ويقال: رزأته انا اذا أصبته بمصيبة (المصباح المنير ج 1 ص 273).

¹⁶⁶ («حلية الاولياء» ج 1 ص 71. رواه ابو نعیم باسناده عن الاصمغ بن نباتة قال سمعت عمار بن ياسر يقول. ورواه المتقي الهندي في «كنز العمال» ج 11 ص 626.

¹⁶⁷ («تذكرة الخواص» ص 117. رواه سبط ابن الجوزي باسناده عن ابي أعور.

¹⁶⁸ كتاب «الزهد» - احمد بن حنبل ص 130 - 133 ورواه احمد في «الفضائل». والوصابي في «اسنى المطالب» الباب الخامس عشر ص 91 رقم 11.

¹⁶⁹ كتاب «الزهد» - بن حنبل ص 130 - 133 ورواه احمد في «الفضائل».

فيعمل له. وان كان ليقوم الى الصلاة، فاذا قال: وجّهت وجهي، تغيّر لونه حتى يعرف ذلك في وجهه. ولقد أعتق الف عبد من كدّ يده، كلهم يعرق فيه جبينه وتحفى فيه كفّه...»¹⁷⁰.

وبكلمة، فقد كانت عبادته حالة عقلية وروحية درج (ع) عليها منذ ان كان صبياً مع رسول الله (ص). فقد عبد الله سبحانه سرّاً وعلانية في الغار، وعبد الله سبحانه في الكعبة يوم كان ازلام قريش يصبون عليهما العذاب، وعبد الله عزّ وجلّ في ساحات الحروب الكبرى ضد الشرك. وليس عجيباً ان يستمر عليّ (ع)، بعد وفاة النبي (ص)، في عبادته المشهودة التي كانت تأخذ جلّ وقته وتفكيره.

ولا شك ان الزهد في الدنيا ملازمٌ للعبادة. فكلما ذاب العبد في التفكير في خالقه ومولاه عزّ وجلّ، كلما زهد في اموره الدنيوية المادية كاللباس والطعام والمال والملك. وهكذا كانت حياة علي (ع) مملوءة زهداً وصلاةً وتفكيراً في الله جلّ وعلا.

ثانياً: العمل السياسي: التقية

عندما ادرك الامام (ع) يقيناً بأن الخلافة الشرعية قد سلبت من اهلها يوم السقيفة، وان القوم جادّين في محاربتة بالسيف _ ان لزم الامر _ استخدم (ع) التقية كرخصة شرعية لمواجهة الوضع الجديد¹⁷¹. والى ذلك صرح قائلاً: «والله ما منعي الجبن، ولا كراهية الموت. ولكن منعي عهد اخي رسول الله (ص) اذ قال: يا ابا الحسن ان الامة ستغدربك، وتنقض عهدي، وانت مني بمنزلة هارون من موسى، فقلت: ماذا تعد اليّ يا رسول الله اذا كان ذلك؟ فقال: ان وجدت أعواناً فبادر اليهم وجاهدهم، وان تجد أعواناً فكفّ يدك واحقن دمك حتى تلحق بي مظلوماً. ثم قال: ان لي أسوة بسبعة انبياء: أولهم نوح اذ قال: (... أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)¹⁷². والثاني: ابراهيم الخليل حيث قال: (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...)¹⁷³. والثالث: ابن خالته لوط الذي قال لقومه: (... لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)¹⁷⁴. والرابع: يوسف اذ قال: (... رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ...)¹⁷⁵. والخامس: موسى حيث قال: (فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا

¹⁷⁰ («شرح فتح البلاغة» ج 4 ص 110.

¹⁷¹ (راجع كتاب «التقية» - للمؤلف. مخطوط. ص 77 - 80.

¹⁷² (سورة القمر: آية 10.

¹⁷³ (سورة مريم: آية 48.

¹⁷⁴ (سورة هود: آية 80.

¹⁷⁵ (سورة يوسف: آية 33.

خَفُّكُمْ...»¹⁷⁶ . والسادس: هارون الذي قال: (... إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي...)»¹⁷⁷ .
والسابع: محمد (ص) لما هرب من المشركين الى الغار».

ويشير (ع) ايضاً في خطبته الشقشقية: «وظفقتُ ارتئي بين ان اصول بيد جذاء (مقطوعة). او أصبر على طخية (ظلمة) عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير ويكدح فيها مؤمن حتى يلقي ربه. فرأيت ان الصبر على هاتا أحجى»¹⁷⁸ .

وفي تلك النصوص التاريخية دلالات ظاهرة تدلّ على ان الامام (ع) رأى في السكوت الظاهري عن الولاية امراً شرعياً واجباً. وهذا يعبرُ - في بعض الوجوه - عن اظهار فعلٍ مخالفٍ لما استقر عليه القلب من ايمان راسخ بالوظيفة الشرعية للمعصوم (ع) في ادارة المجتمع. وهو بذاته يعكس جوهر فكرة التقية.

السكوت من اجل اعلاء كلمة الحق:

لقد وجد امير المؤمنين (ع) نفسه وحيداً بعد دفن النبي (ص)، حيث يقول في كتاب له الى اهل مصر: «فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام، يدعون الى محق دين محمد (ص) فخشيت ان لم انصر الاسلام واهله ان أرى فيه ثلماً أو هدماً يكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم، التي انما هي متاعُ ايام قلائل، يزول منها ما كان كما يزول السراب، او كما يتقشّع السحاب. فنهضت في تلك الاحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه»¹⁷⁹ .

وهذه التقية من مولى الموحدين التي كان قوامها النهوض بعد زوال الباطل، كان هدفها حفظ الاسلام. لان الدين كان في خطر وهو لا يزال غضاً جديداً، وحالة الانحراف والارتداد ممكنة. فأثر السكوت على مواجهة القوم. فكان سكوتاً من اجل اعلاء كلمة الحق. وهذا هو روح فكرة التقية في الاسلام. ولقد كان الامام (ع) يعي دوره الخطير في حفظ شوكة الاسلام في وقت لم يكن الدين قد تمكن من نفوس الكثير من المسلمين الذين كانوا قريبي عهد بالاسلام. فلو ثار على الخط السياسي الجديد بعد سقيفة بني ساعدة لاصبحت تلك الثورة مدعاة لتشتت كلمتهم، وهم على ما هم عليه من ضعف في العقيدة وقلة في العدد مع شدة الاعداء من الروم والفرس.

(¹⁷⁶) سورة الشعراء: آية 21.

(¹⁷⁷) سورة الاعراف: آية 150.

(¹⁷⁸) «فحج البلاغة». الخطبة الشقشقية. خطبة 3 ص 36.

(¹⁷⁹) «فحج البلاغة» - من كتاب له (ع) الى اهل مصر مع مالك الاشر ص 604 - 605.

وسكت (ع) عن حقه الشرعي مدة خمس وعشرين سنة، وكان شعاره: «لأسلمن ما سلمت امور المسلمين، ولم يكن فيها جوراً الا عليّ خاصة، التماساً لاجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه»¹⁸⁰.

الدلالات التاريخية:

وفي تلك المواقف والاحداث دلالات، منها:

1 _ ان الامام امير المؤمنين (ع) كان يلمس واقعاً ان خروجه المسلح على القوم فيه هدم لاركان الدين وشريعة سيد المرسلين (ص). فآثر سلوكاً خارجياً مخالفاً لما كان يعتقد به من ايمان بالوصية الشرعية من قبل النبي (ص).

2 _ ان الاعتزال عن القوم او الهجرة المعبر عنها بالهرب أو الفرار في ظروف استثنائية من اجل حقن الدم وحفظ العقيدة، كان قد عمل بها رسول الله (ص) وانبيائه كنوح وابراهيم ولوط ويوسف وموسى وهارون عليهم السلام جميعاً. وعندما هاجر رسول الله (ص) من مكة الى المدينة، فانه (ص) كسر حاجز الخوف من المشركين. وهذه كلها حالات مؤقتة للخروج من الحالة الاستثنائية التي احدثها الظالم ضد المؤمنين. وما ان تكسرت قيود الظلم، حتى ارتفعت مبررات التقية.

3 _ ان الامام (ع) كان ينظر الى القضية الكلية للاسلام. فتقوته في قضية الولاية في عهد خلفاء قريش كانت تنبع من خشيته على ثلم الاسلام. خصوصاً وان النظام الجديد بعد وفاة النبي (ص) كان مرشحاً لالحاق الضرر بمباني الاسلام في العقيدة والاحكام الشرعية.

(¹⁸⁰) م. ن. - خطبة 73 ص 110.

وظيفة التقية:

نستلهم من قراءة التأريخ ان للتقية وظائف خطيرة نعرضها بالشكل التالي:

1 _ حفظ التوازن الاجتماعي بين الحق والباطل. فلو انتصر الباطل وليس هناك من يحفظ الايمان والولاء في القلوب لتحقيق الهدف النهائي للظلم وهو: محق الدين ورسالة العدالة السماوية من الوجود. اذن، فان التقية تؤدّي لاحقاً، وبعد زوال الاكراه والظلم وتقليص دور الباطل، الى انسجام اجتماعي ينعم به الافراد في المجتمع، وتماسك اجتماعي بين القلة المضطّهدة زمن الاكراه.

2 _ ان مشروعية التقية تسلب جزءاً من الهموم التأريخية الثقيلة التي يوّلدها الاكراه الخارجي على الجماعة المُكرّهة. فاحساس تلك الجماعة في ذلك الظرف الاستثنائي بأنها تستطيع ان تحافظ على ايمانها قليلاً وتخفي، في الوقت نفسه، ايمانها بالولاية يساعدها على معايشة المحنة الصعبة معايشة واقعية. فهذه الرخصة الشرعية تجعل الجماعة تمارس حياة اجتماعية طبيعية في ظرف حالك، في الوقت الذي تخيء فيه ايماناً قوياً بمبدأها. فموقفها مثل النار المشتعلة تحت ذلك الرماد الظاهري. وتلك وظيفة تأريخية مهمة للاجيال المتتالية، فما ان يزول الرماد حتى ترجع شعلة الايمان والولاء متّقدة في السلوك الخارجي للمؤمنين.

3 _ ان التقية تجرد الظالم من أحد أهم اركان ظلمه، وهي انها تضع للمظلوم املاً وتعلمه بأن وقت الظلم محدود ومؤقت، ولا بد للاكراه من ان ينقضي وتنهار آثاره السلبية. وهذا الامل يجعل التيار الفكري للطائفة المضطّهدة جارياً ببطء وحذر، ولكنه غير منقطع، كما اراد الظالم ذلك.

ثالثاً: العمل القضائي: الاستشارة

كان الامام (ع) متميزاً في ابداء مهمة القضاء بين الناس والتعامل مع الخصومات على ضوء فهمه الواسع لاحكام الشريعة وقواعد المعرفة الدينية، ووضوح الاسباب وتفتح ابواب العلم والمعرفة في قلبه وعقله (ع). ويدل على ذلك روايات، منها:

أ _ «أتى النبي (ص) ناسٌ من اليمن، فقالوا ابعث فينا من يفقهنا في الدين، ويعلمنا السنن، ويحكم فينا بكتاب الله، فقال النبي (ص): انطلق يا عليّ الى اهل اليمن، ففقههم في الدين وعلمهم السنن واحكم فيهم بكتاب الله. فقلت: ان اهل اليمن قوم طغاة يأتوني من القضاء بما لا علم لي به. فضرب النبي (ص) على صدري، ثم قال: اذهب فان الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك، فما شككت في قضاء بين اثنين حتى الساعة»¹⁸¹.

(¹⁸¹) «منتخب كسر العمال» ج 5 ص 36. رواه المتقي الهندي باسناده عن علي (ع).

وهذه الرواية ينبغي ان تقرن — كمؤيد — مع الروايات الواردة في تربية النبي (ص) لعلي (ع)، والتي اسهنا في تحليلها في الفصول السابقة.

ب — روى ابن حجر باسناده قال: «قال رسول الله (ص): أقضاكم علي (ع)»¹⁸².

ج — وعن ابي سعيد الخدري: «قال رسول الله (ص): ان اقضى امي علي بن ابي طالب»¹⁸³. وعن ابن مسعود، قال: «أفرض اهل المدينة واقضاها علي»¹⁸⁴.

ما نقله صاحب «مطالب السئول»:

ونقل صاحب كتاب «مطالب السئول في مناقب آل الرسول» كلاماً جميلاً في هذا الخصوص، لكنه لا يخلو من تأملات، نقله مع رده ومناقشته، فقال: «نقل القاضي الامام ابو محمد الحسين بن مسعود البغوي في كتابه المسمى بالمصابيح مروياً عن انس بن مالك، ان رسول الله (ص) لما خصّ جماعة من الصحابة كل واحد بفضيلة، خصّ علياً (ع) بعلم القضاء فقال: وأقضاهم علي (ع) فقد صدع هذا بمنطوقه، وصرح بمفهومه. ان انواع العلم واقسامه قد جمعها رسول الله (ص) لعلي (ع) دون غيره فان كل واحد ممن خصّه رسول الله (ص) بفضيلة خاصة لم يتوقف حصول تلك الفضيلة على غيرها من الفضائل والعلوم. فانه (ص) قال: افرضهم زيد، وأقرأهم أبي، واعلمهم بالحلال والحرام معاذ (!!)، ولا يخفى ان علم الفرائض لا يفتقر الى علم آخر، ومعرفة القراءة لا يتوقف على سواها، وكذلك العلم بالحلال والحرام.

بخلاف علم القضاء، فالنبي (ص) قد اخبر بثبوت هذه الصفة العالية لعلي (عليه السلام) مع زيادة فيها. فان صيغة (أفعل) يقتضي وجود اصل ذلك الوصف، والزيادة فيه على غيره. واذا كانت هذه الصفة العالية قد اثبتت له فتكون حاصلة. ومن ضرورة حصولها له ان يكون متّصفاً بها. ولا يتّصف بها الا بعد أن يكون كامل العقل، صحيح التمييز، جيّد الفطنة، بعيداً عن السهو والغفلة. يتوصّل بتفضيله الى وضوح ما استكمل، وفصل ما اعضل، ذا عدالة تحجزه عن ان يجوم حول حمى المحارم، ومروءة تحمله على محاسن الشيم، ومجانبة الدنيا، صادق اللهجة، ظاهر الامانة، عفيفاً عن المحظورات، مأموناً في السخط والرضا، عارفاً بالكتاب والسنة، والاتفاق والاختلاف، والقياس (!!) ولغة العرب بحيث يقدم المحكم على المتشابه، والخاص على العام،

¹⁸² («الصواعق المحرقة» - ابن حجر. ص 73.

¹⁸³ («المناقب» - الخوارزمي. الفصل السابع ص 39.

¹⁸⁴ («نور الابصار» - الشبلنجي. ص 94.

والمبين على الحمل، والناسخ على المنسوخ، ويبيّن المطلق على المقيّد. ويقضي بالتواتر دون الآحاد، وبالمسند دون المرسل، وبالمتمصل دون المنقطع، وبالاتفاق دون الاختلاف... ليتوصل بها الى الاحكام.
فليس كل حكم منصوباً عليه، ويعرف اقسام الاحكام من الواجب والمخظور والمندوب والمكروه.
فهذه امور لا يصح اتصاف الانسان بعلم القضاء ما لم يحط بمعرفتها. ومتى فقد علمه بما لا يصلح للقضاء، ولا يصلح اتصافه به.

فظهر لك _ ايدك الله تعالى _ ان رسول الله (ص) حيث وصف علياً بهذه الصفة العالية بمنطوق لفظه المثبت له فضلاً، فقد وصفه بمفهومه بهذه العلوم المشروحة المتنوعة. الاقسام فرعاً واصلاً.

وكفى بذلك دلالة لمن خصّ بهدية الهداية قولاً وفعلاً على ارتقاء علي (ع) في مناهج معارج العلوم الى المقام الاعلى، وضربه في اعتناء الفضائل الجزاة بالتساهم بالقدح المعلى حصول هذه المناقب والآلاء. وشمول هذه المطالب السنوية الحاصلة لعلي (ع) من مواد علم القضاء كان مناط افاضة انوارها عليه، ان رسول الله (ص) قبل ذلك لما انتدبه وانتضاه، وآثره وارتضاه، وفوض اليه قضاء اليمن وولاه أحجم احكاماً. فلما أحسّ رسول الله (ص) ذلك منه اخبره بان الله عزّ وعلا سيرزق قلبه الهدى والنبئت له من الله تعالى، فلن يضل ابداً.

فمن ذلك ما نقله الامام ابو داود سليمان بن الاشعث في مسنده يرفعه بسنده ال علي (ع) قال:
ارسلني رسول الله (ص) الى اليمن قاضياً، فقلت: يا رسول الله، ترسلني وانا حديث السنن ولا علم لي بالقضاء. فقال لي رسول الله (ص): ان الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك، فاذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الاول، فانه احرى ان يبين لك القضاء. قال: فما زلت قاضياً وما شككت في قضاء بعد. فهبت عليه النسمات الالهية من العناية النبوية بألطف التأييد ونزل عليه الملكان الموكلان بالحقين، فألبساه رداء التوفيق والتسديد. فوفرت حقائق علم القضاء في صدره، حتى ما على احاطته بهما من مزيد، وأثمرت حدائق فضائله، فنخلها بالمعرفة باسقات ذوات طلع نضيد.

فلما رسخ علمه (ع) بمواد القضاء رسوخاً لا تحركه الهواب، ورسى قدم فهمه في قواعد معرفته بحيث لا يعترضه الاضطراب، وصفه رسول الله (ص) بقوله: اقضاكم علي، اذ وضحت لديه الاسباب، وتفتحت بين يديه الابواب، وشرحت له السنن والآداب، حتى قال رسول الله (ص): ليهنك العلم أبا الحسن، لقد شربت العلم شرباً، ونهلته نهلاً»¹⁸⁵.

(¹⁸⁵) «مطالب السؤل» - محمد بن طلحة ص 56.

نقد فكرة تفكيك علم الامام (ع):

يشمل علم الامام (ع) كل ما يتعلق بالشريعة من امور. ذلك ان النقص في علم الامام (ع) يعكس نقصاً في توصيل الشريعة الى الناس بعد غياب النبي (ص). وهذا ما لا يمكن قبوله بأي حال من الاحوال. وقد كانت حياة امير المؤمنين (ع) مصاديق واضحة لشمولية علم الامام (ع) وتكامله. فهنا نقاط:

1 _ مع ان القضاء يتطلب التوصل الى معرفة الاحكام الشرعية، الا ان تخصيص الامام (ع) بعلم واحد دون بقية العلوم، انتقاص لقدرة امير المؤمنين (ع) في الادراك الذهني الهائل الذي كان يمتلكه. فهذا الشنقيطي يقول عنه (ع): «ولاحل ما خصه الله تعالى به من فهم دقائق العلم بسرعة، احتاج اجلاء الصحابة لحله للعويصات»¹⁸⁶. وهنا لم يخصص العلم بالقضاء، بل قصد به مطلق العلم.

فكيف يستقيم ذلك اذن، مع الادعاء بأن زيدا افضهم (أي اكثرهم علماً بالارث)، وابي اقرأهم، ومعاذ اعلمهم بالحلال والحرام!! وأقل ما يقال ان في كلام صاحب «مطالب السؤل» حلقة مفقودة لا يمكن العثور عليها، الا بارجاع مطلق علوم الدين الى علي (ع)، وهو القائل: «سلوني قبل ان تفقدوني، فاني بطرق السماء اعلم من طرق الارض»¹⁸⁷.

2 _ اذا كان يقصد من العلمية في «القضاء» والكفاءة في الحكم بين المتخاصمين، العدالة المطلقة التي تحجزه عن المحارم، فهذا مقبول عند اهل العلم. الا ان العلم بالحلال والحرام والعلم بالفرائض يحتاجان الى عدالة ايضاً في نقلهما الى الناس. وتخصيص عدالته في «القضاء» اذن لا مير له، الا اللهم كان يراد منه ما هو اعم من القضاء بين المتخاصمين وهو الولاية على الامة. ولا شك ان الولاية تتضمن قضاءً لتحديد طبيعة الحقوق والواجبات. فيكون هذا اقرب الى الصواب.

3 _ ان علياً (ع) كان اقضاهم، في الوقت الذي كان فيه افقههم واشجعهم وازهدهم واعلمهم بأمر الدين وخفايا القرآن. بل كان افضهم واقراءهم وأعلمهم بالحلال والحرام. وهنا لا يمكن تفكيك علم الامام (ع)، وقد قال فيه رسول الله (ص): «انا مدينة العلم، وعلي باهما. فمن اراد المدينة فليدخل من الباب». وهو قول فيه دلالات عظيمة على اطلاق العلم وعلى عمق ادراك علي (ع) لاحكام الدين والشريعة. ولو كان للبعض ذرة من علم علي (ع) لقرأناه من خلال الروايات. الا ان ذلك لم يتم ولن يتسنى لاحد ان قرأ حل المعضلات علي يدي زيد او ابي او معاذ، كما قرأناها لعلي (ع).

(186) «كفاية الطالب» - الشنقيطي ص 57.

(187) «الاختصاص» ص 235.

النتيجة:

وفي النتيجة ان عمل الامام (ع) في القضاء لم يكن عملاً رسمياً، اذا صح التعبير، بل كان عملاً استشارياً. فقد كان (ع) _ وعندما يعجز القوم عن حل المعضلات الشرعية _ يُستشار فيعطي رأي الشريعة في ذلك. ولذلك كان ذلك العمل محدوداً محدوداً يعجز القوم عن فهم احكام الشريعة، والا فهو لم يكن قاضياً زمن الخلفاء الثلاثة كما يتبادر الى الذهن اول مرة.

أقسام قضاء الامام (ع):

ويمكن تقسيم قضاؤه (ع) زمن الخلفاء الثلاثة الى ستة اقسام، وهي: فيما يتعلق بالملكية، والقضايا الاخلاقية، والقصاص، والجنايات الاجتماعية، وفي قضايا العقائد ومبهمات الامور، والعبادات، وفي قضايا الحرب.

1 _ فيما يتعلق بالملكية:

ينظر الاسلام الى الملكية نظرة خاصة، ويرتب على انتهاكها عقوبات شديدة. ذلك لان ضمان سلامة حقوق الناس من تعدي الآخرين تعتبر من اهم اسباب استقرار المجتمع الانساني. ولذلك كان (ع) يشارك في حلّ معضلات العقوبات الجنائية الخاصة بالملكية. وقد انتخبنا لذلك اربع روايات:

أ _ «أُتي عمر بن الخطاب برجل أقطع اليد والرجل قد سرق، فأمر به عمر ان تقطع رجله [الثانية]، فقال علي (ع): انما قال الله تعالى: (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ...)»¹⁸⁸. فقد قطعت يد هذا ورجله، ولا ينبغي ان تقطع رجله [الثانية] فتدعه ليس له قائمة يمشي عليها. اما ان تعززه واما ان تستودعه السجن. قال: فاستودعه السجن»¹⁸⁹.

ب _ «ان اول جد ورث في الاسلام عمر بن الخطاب. مات ابن فلان بن عمر، فأراد عمر ان يأخذ المال دون اخوته، فقال له علي وزيد (رض): ليس لك ذلك. فقال عمر: لولا ان رأيكما اجتمع لم أر أن يكون ابني ولا اكون اباه»¹⁹⁰.

¹⁸⁸ (سورة المائدة: آية 33).

¹⁸⁹ «كنز العمال». كتاب الحدود. ج 5 ص 319. رواه المتقي الهندي باسناده عن عبد الرحمن بن عائد.

¹⁹⁰ «السنن الكبرى» ج 6 ص 247. رواه البيهقي باسناده عن الشعبي. ورواه الدارمي في سننه مع فرق يسير في ج 2 ص 354.

ج _ «حبان بن منقذ كانت تحته امرأتان: هاشمية وانصارية، فطلق الانصارية ثم مات على رأس الحول. فجاءت الانصارية وقالت: لم تنقضِ عدتي. فارتفعوا الى عثمان. وقال: ليس لي به علم. فارتفعوا الى علي (ع)، فقال علي: تخلفين عند منبر رسول الله (ص) انك لم تحيضى ثلاث حيضات فلك الميراث. فحلفت وأشركت في الميراث»¹⁹¹.

د _ استودع رجلين امرأة من قريش «مائة دينار وامراها ان لا تدفع الى واحد منهما دون صاحبه، فأتاه احدهما فقال: ان صاحبي قد هلك فادفعي اليّ المال، فأبت فاستشفع اليها، ومكث يختلف اليها ثلاث سنين، فدفعت اليه المال. ثم جاء اليها صاحبه، فقال: اعطيني مالي فقالت له: قد اخذه صاحبك. فارتفعوا الى عمر. فقال له عمر: الك بينة؟ فقال: هي بينتي. قال: ما اراك الا ضامنة. فقالت: انشدك الله الا ما رفعتنا الى علي بن ابي طالب (ع). فرفعها اليه فأتوه في حايط (أي بستان) له وهو يسيل الماء وهو مؤتزر بكساء، فقصّوا عليه القصة. فقال (ع) للرجل: إيتني بصاحبك وعليّ متاعك»¹⁹². وفي رواية اخرى، قال علي (ع): «هذه الوديعه عندي وقد امرتها ان لا تدفعها الى واحد منكما حتى تجتمعا عندها فأتني بصاحبك». ولم يضمنها (أي لم يحمل المرأة مسؤولية الضمان، وهو خلاف ما حكم به عمر).

2 _ القضايا الاخلاقية:

ومع ان الاسلام تعامل تعاملًا جدياً في معالجة الانحرافات الاخلاقية كالزنى ونحوه، الا ان ذلك التعامل كان عادلاً ايضاً. فالقاعدة هي ان الاسلام وضع العقوبات لمعالجة الجرائم الاخلاقية ضمن حدود العقل والبلوغ والارادة. ومن كان خارج تلك الدائرة، فليس من العدالة معاقبته. وقد وقع الخلفاء في اخطاء شرعية فادحة كادت ان تغير ملاكات الاحكام الشرعية، ولكن وجود الامام (ع) ومساهمته في تثبيت الحق حفظ الشريعة واحكامها. وفي ذلك انتخبنا اربع روايات:

أ _ «أُتي عمر بن الخطاب بامرأة مجنوننة جبلية قد زنت، فاراد ان يرحمها، فقال له علي امير المؤمنين (ع): او ما سمعت ما قال رسول الله؟ قال: وما قال؟ قال: قال رسول الله (ص): رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يبرأ، وعن الغلام حتى يجتلم، وعن النائم حتى يستيقظ. قال: فخلى عنها»¹⁹³.

(¹⁹¹) «وسيلة الآل» ص 244. رواها بن باكتير عن محمد بن يحيى بن حبان. ورواه الوصافي في «اسنى المطالب» ص 57، رقم 50.

(¹⁹²) «المناقب». الفصل السابع ص 54. رواه الخوارزمي باسناده عن حنش. ورواه سبط ابن الجوزي في «تذكرة الخواص» ص 48. ورواه «الفيح» في باب الخيل في احكام قضائه ناسباً له الى رواية ابراهيم الثقفي.

(¹⁹³) «المناقب». الفصل السابع ص 38. رواه الخوارزمي باسناده عن الحسن.

ب _ «لما كان في ولاية عمر أتي بامرأة حامل سألها عمر عن ذلك، فاعترفت بالفجور. فأمر بها عمر ان ترجم، فلقبها علي بن ابي طالب (ع) فقال: ما بال هذه المرأة؟ فقالوا: أمر بها عمر ان ترجم فردها علي (ع) فقال له: أمرت بها ان ترجم؟ فقال: نعم، اعترفت عندي بالفجور. فقال (ع): هذا سلطانك عليها، فما سلطانك علي ما في بطنها؟ ثم قال له علي (ع): فلعلك انتهرتها او أخفتها؟ فقال عمر: قد كان ذلك. قال علي (ع): أو ما سمعت رسول الله (ص) يقول: لا حدَّ علي معترف بعد البلاء، انه من قُيدت او حُبست او تهددت فلا اقرار له، فخلّى عمر سبيلها...»¹⁹⁴.

ج _ «أُتي عمر بامرأة قد ولدت لستة اشهر، فهم ان يرجمها، فبلغ علياً (ع)، فقال: ليس عليها رجم. فبلغ ذلك عمر فأرسل اليه يسأله. فقال علي (ع): (والوالدات يُرضعن أولادهنَّ حولين كاملين لمن أراد أن يُتِمَّ الرِّضَاعَةَ...)»¹⁹⁵، وقال: (... وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا)¹⁹⁶. فستة اشهر حملها، وحولين تمام الرضاعة، لا حدَّ عليها. قال: فخلّى سبيلها...»¹⁹⁷.

د _ «كان عمر بن الخطاب يعس بالمدينة ذات ليلة فرأى رجلاً وامرأة على فاحشة. فلما اصبح قال للناس: أرايتم ان اماماً رأى رجلاً وامرأة على فاحشة فأقام عليهما الحدَّ، ما كنتم فاعلين؟ قالوا: انما انت امام، فقال علي بن ابي طالب: ليس ذلك لك، اذن يقام عليك الحد، ان الله لم يأمن على هذا الامر [أقل] من اربعة شهداء...»¹⁹⁸.

3 _ القصص:

ولم نعثر على رواية تدلّ على ان الامام (ع) عالج مشلكة القصص في تلك الفترة، أي من السنة 11 للهجرة وحتى سنة 35 هـ. وهذا يقربُّ أحدُ احتمالين:
الاول: ان المسلمين كانوا مشغولين في حروب خارج المدينة، منها حروب ضد الذين قيل انهم امتنعوا عن دفع الزكاة وحروب العراق وفارس والروم. وفي اجواء ينشغل الناس فيها بالحروب، مع وجود حكم العقوبة، تتدنى مستويات القتل العمد او الاعتداء بالقطع والجرح.

(¹⁹⁴) «المصدر السابق» ص 39. رواه الخوارزمي باسناده عن زيد بن علي عن ابيه عن حده عن علي بن ابي طالب (ع).

(¹⁹⁵) سورة البقرة: آية 233.

(¹⁹⁶) سورة الاحقاف: آية 15.

(¹⁹⁷) «المناب» ص 50. رواه الخوارزمي باسناده عن ابي الاسود. ورواه المتقي الهندي في «كنز العمال» كتاب الحدود ج 5 ص 457. وسبب ابن الجوزي في «تذكرة الخواص» ص 148.

(¹⁹⁸) «كنز العمال» كتاب الحدود من قسم الافعال ج 5 ص 256. رواه المتقي باسناده عن ام كلثوم ابنة ابي بكر.

الثاني: ان مشاكل مجتمع المدينة كانت تتركز على قضايا شرب الخمر وارتكاب الفاحشة. وهي على قلتها تعكس ان شريحة من مجتمع المدينة كانت تبحث عن المتعة والانس ولا تكترث كثيراً للعنف والعنف المضاد.

وكلا الاحتمالين كانا قائمين، ولا نستطيع ترجيح احدهما على الآخر لفقدان القرائن التاريخية.

4 _ جنایات اجتماعية:

يعدّ شرب الخمر من الانحرافات السلوكية الاجتماعية التي لم يسمح بها الاسلام. ووعد مرتكبيها عقوبة شديدة وهي ثمانين جلدة. وكان شرب الخمر منتشرًا في الجاهلية، بحيث ان معالجة مشكلة تناول الخمر لا تتم الا عن طريق الزام ديني تدريجي حاسم. والا، فان المشكلة لا يمكن علاجها. وهكذا كان، فقد عالجها الاسلام بحكمة تشريعاته، فانحصرت عندئذ في شريحة منحرفة كانت تحاول التحايل بشتى الطرق من اجل الاستمرار في تناول ذلك السائل المحرّم. وفي ذلك ثلاث روايات. وقد اضفنا رواية خاصة باختلال في عملية الزواج والطلاق والعدّة، واعتبرناها من الجنایات الاجتماعية. فهنا اربع روايات:

أ _ «شَرِبَ قوم الخمر بالشام، وعليهم يزيد بن ابي سفيان في زمن عمر. فقال لهم يزيد: هل شربتم الخمر؟ فقالوا: نعم. شربناها، وهي لنا حلال. فقال: أو ليس قال الله عزّ وجلّ: (يا أيّها الذين آمنوا إِنَّمَا الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوه لعلّكم تُفلحونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطانُ أن يُوقِعَ بينكمُ العداوةَ والبغضاءَ في الخمرِ والميسرِ ويصدّكمُ عن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصلاةِ فهل أنتم مُنتهونَ . وأطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنّما على رسولنا البلاغُ المبينُ) ¹⁹⁹. حتى فرغ من الآية، فقالوا: اقرأ التي بعدها، فقرأ: (ليسَ على الذين آمنوا وعمالوا الصالحاتِ جناحٌ فيما طعموا إذا ما اتَّقوا وآمنوا وعمالوا الصالحاتِ ثم اتَّقوا وآمنوا ثم اتَّقوا وأحسنوا واللهُ يُحبُّ المحسنينَ) ²⁰⁰. فنحن الذين آمنوا وأحسنوا.

فكتب بأمرهم الى عمر، فكتب اليه عمر: إن اتاك كتابي هذا ليلاً فلا تصبح حتى تبعث بهم اليّ، وإن اتاك نهاراً فلا تمس حتى تبعث بهم اليّ.

قال: فبعث بهم اليه ، فلما قدموا على عمر سأهم عمّا كان سأهم يزيد وردّوا عليه كما ردّوا على يزيد. فاستشار فيهم اصحاب النبي (ص) فردّوا المشورة اليه. قال: وعلي (ع) حاضر في القوم ساكت. فقال:

(¹⁹⁹) سورة المائدة: آية 90 - 92.

(²⁰⁰) سورة المائدة: آية 93.

ما تقول يا ابا الحسن؟ فقال امير المؤمنين (ع): انهم قوم افتروا على الله الكذب، وأحلوا ما حرم الله، فأرى ان تستيتهم، فان ثبتوا وزعموا ان الخمر حلال، ضربت اعناقهم. وان هم رجعوا، ضربتهم ثمانين ثمانين بفريتهم على الله عز وجل. فدعاهم فأسمعهم مقالة علي (ع) فقال: ما تقولون؟ فقالوا: نستغفر الله ونتوب اليه، ونشهد ان الخمر حرام، وانما شربناها ونحن نعلم انها حرام، فضربهم ثمانين ثمانين جلدة»²⁰¹.

ب _ روى الشيخ المفيد (ت 413 هـ) عن رجال من العامة والخاصة: «ان رجلاً رفع الى ابي بكر، وقد شرب الخمر، فأراد ان يقيم عليه الحدّ. فقال له: اني شربتها ولا علم لي بتحريمها، لآتي نشأت بين قوم يستحلونها، ولم أعلم بتحريمها حتى الآن.

فأرتج على ابي بكر الامر بالحكم عليه، ولم يعلم وجه القضاء فيه. فأشار عليه بعض من حضر ان يستخير امير المؤمنين (ع) عن الحكم في ذلك. فأرسل اليه من سأله عنه ، فقال امير المؤمنين (ع): مُر رجلين ثقتين من المسلمين يطوفان به على مجالس المهاجرين والانصار ويناشداهم: هل فيهم احدٌ تلا عليه آية التحريم او اخبره بذلك عن رسول الله (ص). فإن شهد بذلك رجلان منهم فأقم الحدّ عليه، وان لم يشهد احدٌ بذلك فاستببه وخلّ سبيله. ففعل ذلك ابو بكر، فلم يشهد احد من المهاجرين والانصار انه تلا عليه آية التحريم، ولا اخبره عن رسول الله (ص) بذلك فاستتابه ابو بكر وخلّى سبيله وسلّم لعلي (ع) في القضاء به»²⁰².

ج _ «ان عمر بن الخطاب استشار في الخمر يشربها الرجل، فقال له علي بن ابي طالب: نرى ان نجلده ثمانين، فانه اذا شرب سكر، واذا سكر هذى، واذا هذى افترى، فجلد عمر في الخمر ثمانين»²⁰³.

د _ «أُتي عمر الخطاب بامرأة تزوجت في عدتها فأخذ مهرها فجعله في بيت المال وفرّق بينهما، وقال: لا يجتمعان، وعاقبهما. قال: فقال علي (رض): ليس هكذا ولكن هذه الجهالة من الناس. ولكن يفرّق بينهما، ثم تستكمل بقية العدة من الاول ثم تستقبل عدة أخرى. وجعل لها على المهر بما استحلّ من فرجها. قال: فحمد الله عمر (رض) وأثنى عليه، ثم قال: يا ايها الناس ردّوا الى السنّة»²⁰⁴.

5 _ في قضايا العقائد ومبهمات الامور:

ولما كان الاسلام ديناً جديداً يافعاً بالنسبة للاديان السماوية الاخرى، فقد كانت عملية اثاره الاسئلة المعقدة او المحرجة وإثارة الشكوك امراً طبيعياً من قبل الاعداء. وكان لابد لامام معصوم مثل علي (ع) ان

(²⁰¹) «المناقب»، الفضل السابع ص 53. رواه الخوارزمي باسناده عن عبد الرحمن. ورواه العاصمي في «زين الفن في تفسير هل اتى» ص 333 مخطوط.

(²⁰²) «الارشاد» - الشيخ المفيد. ص 95.

(²⁰³) «الموطأ» ص 607 رقم 1531. رواه مالك بن انس عن ثور بن زيد الديلمي.

(²⁰⁴) «السنن الكبرى» ج 7 ص 442. رواه البيهقي باسناده عن الشعبي.

يتواجد على الساحة الاجتماعية والفكرية من اجل ردّ تلك الشبهات والشكوك والاسئلة المعقدة. وفي ذلك روايتان تتضمنان لوناً من تلك الاسئلة:

أ _ «سأل رسول ملك الروم ابا بكر عن رجل لا يرجوا الجنة ولا يخاف النار، ولا يخاف الله، ولا يركع ولا يسجد، ويأكل الميتة والدم، ويشهد بما لا يرى، ويحبّ الفتنة ويغض الحق. فلم يجبه. فقال عمر: ازددت كفرةً الى كفرك. فأخبر بذلك علي (ع).
فقال: هذا رجلٌ من اولياء الله.

لا يرجوا الجنة ولا يخاف النار ولكن يخاف الله.
ولا يخاف الله من ظلمه وانما يخاف من عدله.
ولا يركع ولا يسجد في صلاة الجنائز.
ويأكل الجراد والسمك ويأكل الكبد.
ويشهد بالجنة والنار وهو لم يرهما.

ويحب المال والولد: (... إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ...) ²⁰⁵.
ويكره الموت وهو حق» ²⁰⁶.

ب _ «اقبل يهودي بعد وفاة النبي (ص) حتى دخل المسجد، فقال: أين وصي محمد؟ فأشار القوم الى ابي بكر، فوقف عليه. وقال: اني اريد ان أسألك عن اشياء لا يعلمها الا نبي او وصي نبي. قال ابو بكر: سل عما بدا لك. قال اليهودي: أخبرني عما ليس لله وعما ليس عند الله، وعما لا يعلم الله.

فقال ابو بكر: هذه مسائل الزنادقة، وهم ابو بكر والمسلمون باليهودي. فقال ابن عباس: ما أنصفتهم الرجل. فقال ابو بكر: أما سمعت تكلم به؟ فقال ابن عباس: ان كان عندكم جوابه، والا فاذهبوا به الى من يجيبه، فاني سمعت رسول الله (ص) يقول لعلي بن ابي طالب: اللهم اهد قلبه وثبت لسانه. قال: فقام ابو بكر ومن حضره حتى أتوا امير المؤمنين (ع) فاستأذنوا عليه.

وقال ابو بكر: يا ابا الحسن، ان هذا اليهودي سألتني عن مسائل الزنادقة. فقال علي (ع): وما تقول يا يهودي؟ فقال: أسألك عن أشياء لا يعلمها الا نبي او وصي نبي. فقال له: قل يا يهودي. فردّ اليهودي المسائل.

(²⁰⁵) سورة الانفال: آية 28.

(²⁰⁶) «المناقب» - ابن شهر آشوب. ج 2 ص 358.

فقال علي (ع): اما ما لا يعلمه الله عزّ وجلّ، فذلك قولكم _ يا معشر اليهود _ ان عزيزاً ابن الله، والله لا يعلم لنفسه ولداً.

واما قولك: أخبرني عما ليس لله، فليس له شريك.

وفي غير هذه الرواية: واما قولك عما ليس عند الله، فليس عند الله فقر ولا جور.

فقال اليهودي: اشهد ان لا اله الا اله، وأنّ محمداً رسول الله، وأشهد أنك وصي الله. وقال المسلمون لعلي بن ابي طالب: يا مفرّج الكرب»²⁰⁷.

6 _ العبادات:

اشرنا في اكثر من موضوع في هذا الكتاب، الى ان المعصوم (ع) من نبي او امام قادر على ادراك ملاكات الاحكام التعبدية. ذلك لان احكام العبادات توقيفية، بمعنى ان صحتها تتوقف على النص لا على ما هو راجح عقلاً. ومن هذا المنطلق كان دور الامام امير المؤمنين (ع) في تلك الفترة استثنائياً في توضيح احكام الشريعة، لان الخلفاء لم يكونوا قادرين على النهوض لأداء تلك المهمة الاستثنائية.

فالاحكام الشرعية المتعلقة بالعبادات بالخصوص، مثلها مثل الثواب المنطقية التي لا تتأثر بالمتغيرات ولا تقبل التبويض او التجزيء او الالغاء. فهي توقيفية، وثابتة بثبوت الجوهر والصفة. فكان مناسباً للامام (ع) على ما كان عليه الوضع السياسي آنذاك، ان يرشد الامة الى احكامها الشرعية الواقعية. وفي ذلك ثلاث روايات:

أ _ قال الشنقيطي: «ولا جل ما خصه الله تعالى به من فهم دقائق العلم بسرعة احتاج أجلاء الصحابة لحلّه للعويصات، فكانوا يحيلون الاسئلة الصعبة عليه فيجيب فيها بالصواب على البديهة. فلذلك لما جاءه عمر سائلاً وقال: ان هؤلاء اصابوا بيض نعام وهم محرمون... قال علي (ع): يضربون الفحل قلائص²⁰⁸ أبكاراً بعدد البيض، فلما نتج منها أهدوه²⁰⁹. قال عمر: فان الابل تخدج²¹⁰. قال علي (ع): والبيض يمرض. فلما ادبر، قال عمر: اللهم لا تنزل بي شدة الا وابو الحسن الى جنبي»²¹¹.

(²⁰⁷) «زين الفين» ص 182. رواه العاصمي باسناده عن أنس

(²⁰⁸) القلائص: من القلوص، وهي الشابة من النوق، وهي بمنزلة الجارية من النساء.

(²⁰⁹) أي جعلوه من الهدى.

(²¹⁰) خَدَجَتِ الناقةُ تُخَدِجُ خَدَاجاً، فهي خادج والولد خديج، اذا القت ولدها قبل تمام الايام، وان كان تام الخلقة... وأخذجتِ الناقةُ، إذا جاءت بولدها ناقص الخلق وإن كانت ايامه تامة. فهي مُخَدِجٌ والولد مُخَدِجٌ. ومنه حديث علي (رض) في ذي الثُدَيَّةِ «مُخَدِجُ البِدِّ» أي ناقص اليد (الصحيح ج 1 ص 308).

(²¹¹) «كفاية الطالب» - الشنقيطي. ص 57.

ب _ «حج عثمان بن عفان، فحج عليّ معه. قال: فأتى عثمان بلحم صيد صاده حلال، فأكل منه ولم يأكل علي. فقال عثمان: والله ما صدنا ولا أمرنا ولا اشرنا. فقال علي (ع): (... وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا...)»²¹².

وعن صبيح بن عبد الله العبسي قال: بعث عثمان بن عفان أبا سفيان بن الحارث على العروض، فنزل قديداً²¹³، فمرّ به رجل من اهل الشام مع باز وصقر. فاستعاره منه فاصطاد به من اليعاقب²¹⁴، فجعلهن في حظيرة. فلما مرّ به عثمان طبخنّ ثم قدمهن اليه. فقال عثمان: كلوا. فقال بعضهم: حتى يجيء علي بن ابي طالب.

فلما جاء، فرأى ما بين ايديهم، قال علي (ع): انا لن نأكل منه. فقال عثمان: ما لك لا تأكل؟ فقال: هو صيد ولا يجلّ أكله وانا محرم. فقال عثمان: بيّن لنا. فقال علي (ع): (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ...)»²¹⁵. فقال عثمان: أو نحن قتلناه؟ فقرأ عليه: (أَحِلُّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا...)»²¹⁶»²¹⁷.

ج _ ذكرنا هذه الرواية في مكان آخر، وهي ان الراوي قال: «صليتُ أنا وعمران بن حصين خلف علي بن ابي طالب فكان اذا سجد كبير، واذا رفع رأسه كبير، واذا نهض من الركعتين كبير. فلما انصرفنا اخذ عمران يدي فقال: لقد صلى صلاة محمد، ولقد ذكرني صلاة محمد (ص)»²¹⁸.

7 _ في قضايا الحرب:

واهمها الاستشارة التي طلبها عمر بن الخطاب في الشخصوص لقتال الفرس بنفسه. وكان جوابه (ع) جواباً شرعياً يحمل صدق المحتوى وبلاغة الاسلوب، وكان (ع) ينظر الى مصلحة الاسلام بالدرجة الاولى، بالرغم مما حصل في السقيفة. فقال (ع):

«إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِذْلَانُهُ بِكَثْرَةِ وَلَا بَقَلَّةِ. وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجَنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ. وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَنْجِزٌ وَعَدَّهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ.»

²¹² (سورة المائدة: آية 96).

²¹³ قُدَيْدٌ: ماءٌ بالحجاز، وهو مُصَغَّرُ (الصَّحاح ج 2 ص 522).

²¹⁴ اليعاقب: جمع اليعقوب، وهو ذَكَرُ الْحَجَلِ (نوع من الطيور).

²¹⁵ سورة المائدة: آية 95.

²¹⁶ سورة المائدة: آية 96.

²¹⁷ «جامع البيان عن تأويل آيات القرآن». ج 7 ص 70. رواه الطبري باسناده عن نوفل بن ابيه.

²¹⁸ «انساب الاشراف» ص 180 حديث 210. رواه البلاذري باسناده عن مطرف بن عبد الله.

ومكانُ القيم بالامر (أي القائم به) مكانُ النظام²¹⁹ من الخرزِ يجمعه ويضمُّه. فإن انقطعَ النظامُ تفرَّقَ وذَهَبَ، ثم لم يجتمع بحذافيره²²⁰ ابداً. والعربُ اليومَ وإن كانوا قليلاً، فهم كثيرونَ بالاسلام، عزيزون بالاجتماع.

فكنُ قطباً، واستدرِ الرحا بالعرب، وأصلهم دونك نارَ الحرب، فإنك إن شخّصتَ (أي خرجت) من هذه الارض انقضت عليك العربُ من اطرافها واقطارها، حتى يكونَ ما تدعُ وراءك من العوارثِ أهمَّ اليك مما بين يديك.

ان الاعاجمَ إن ينظروا اليك غداً يقولوا: هذا أصلُ العربِ، فإذا اقتطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشدَّ لكليهم عليك، وطمعهم فيك.

فاما ما ذكرتَ من مسيرِ القومِ الى قتال المسلمين، فإن الله سبحانه هو اكرهُ لمسيرهم منك، وهو أفدرُ على تغيير ما يكرهُ.

واما ما ذكرتَ من عددهم، فانا لم نكن نُقاتلُ فيما مضى بالكثرة، وانما كنّا نقاتلُ بالنصرِ والمعونة²²¹.

رابعاً: العمل الكسبي: الزراعة

دأب الامام (ع) على العمل في الزراعة من اجل لقمة العيش، فلم يأخذ من بيت المال شيئاً. بل كان ينفق من تكسبه على الفقراء والمساكين. قال ابو نعيم: «وكان علي (ع) اذا لزمه في العيش الضيق والجهد أعرض عن الخلق فأقبل على الكسب والكد»²²². و«روي عنه (ع) انه كان يسقي بيده لنخل قومٍ من يهود المدينة، حتى مجلت يده، ويتصدّق بالأجرة ويشدّ على بطنه حجراً»²²³.

وفي الرواية ايضاً «ان عمر اقطع علياً (كرم الله وجهه) يبيع، ثم اشترى علي ارضاً الى جنبه قطع، وحفر فيها عيناً. فبينما هم يعملون فيها، اذ انفجر عليهم مثل عنق الجزور من الماء فأتى علي (ع) فُبشّر بذلك. فقال: بشّروا الوارث. ثم تصدق بها على الفقراء والمساكين وابن السبيل، وفي سبيل الله يوم تبيضّ فيه وجوه، وتسودّ وجوه ليصرف الله بها وجهه عن النار وليصرف النار عن وجهه»²²⁴.

²¹⁹ النظام: السلك ينظم فيه الخرز.

²²⁰ بحذافيره: أي باصله. والحذافير: جمع حذافير، وهو أعلى الشيء وناصيته.

²²¹ «فحج البلاغة» - باب الخطب رقم 146. ص 248.

²²² «حلية الاولياء» - ابو نعيم. ج 1 ص 70.

²²³ «شرح فحج البلاغة» ج 1 ص 7.

²²⁴ «وسيلة المال» ص 270. رواه بن باكتير باسناده عن جعفر بن محمد عن ابيه.

ولم يكن عمله بالزراعة والحراث والسقي محصوراً بتلك الفترة، بل عمل بالسقي والزراعة في حياة رسول الله (ص). ففي الرواية، حيث يحدثنا (ع) عن نفسه، فيقول: «جئتُ الى حائطٍ او بستان فقال لي صاحبه: دلواً وتمر، فدلوت دلواً بتمر فملأتُ كفي، ثم شربت من الماء ثم جئتُ الى رسول الله (ص). بماء كفي فأكل بعضه وأكلتُ بعضه»²²⁵. ويبدو من ظاهر الرواية _ ومن روايات اخرى مشابهة _ ان النبي (ص) اصابته خصاصة (أي فقر وحاجة الى الطعام)، فبلغ ذلك علياً (ع) فخرج يلتمس عملاً يصيب فيه شيئاً ليغيث رسول الله (ص). فبلغ من صبره: «ما ان كان الجوع اذا اشتد به واجهده خرج حتى يؤجر نفسه في سقي الماء بكفّ تمر لا يسد جوعته ولا خلّته، فاذا أُعطي اجرته لن يستبدّ به وحده حتى يأتي رسول الله (ص) وبه من الجوع مثل ما به فيشتركان جميعاً في اكله»²²⁶.

الاستنتاج:

نستنتج مما سبق، ان الامام (ع) بقى فترة خمس وعشرين سنة من حياته العامرة بالمنجزات بعيداً عن الاضواء، وهي زبدة شبابه. أي منذ كان في الثالثة والثلاثين من عمره وحتى بلغ الثامنة والخمسين. وتلك فترة، لو قُدّر له ان يمضي في الحكم، لأسدت للمسلمين ودولتهم خدمات وفوائد عظيمة يشعّ نورها ابد الدهر. الا ان ارادة القوم شاءت ان يحصل ما حصل.

ولكن الجفاف الفكري والرسالي لتلك الفترة الزمنية المديدة نسبياً، جبرها وجود الامام (ع) وهو يراقب الوضع الديني والاجتماعي دون ان يتدخل الا في الموارد التي كانت تحتّم عليه ان يتدخل فيها. فقد وقف بوجه الخلفاء الثلاثة عندما كان الحكم الشرعي يتطلب الوقوف، ونصحهم عندما كان الموقف يتطلب النصيحة، كما ذكرنا ذلك في الروايات السابقة التي كان محورها عجز الولاة عن الحكم بالاوامر الشرعية الصحيحة. وفي غير ذلك، كان حكم التقية هو الغالب على الحياة الدينية والاجتماعية لمجتمع القرن الاول الهجري.

نبذة عن عهد الخلفاء الثلاثة

تميز عهد الخلفاء الثلاثة الذي استمر زهاء ربع قرن من الزمان برسوخ اقدام الامويين في دولة الاسلام. ومع ان الدولة قد توسعت في عهد الخليفة الثاني، الا ان الفساد الاداري الذي ميّز عهد الخليفة الثالث لمدة اثني عشر عاماً، هزّ الامة من الاعماق. وافضل تعبير عن الحالة التي وصل اليها الوضع، كتاب الامام (ع) الى مالك

(²²⁵) «حلية الاولياء» ج 1 ص 71. رواه ابو نعيم عن مجاهد عن علي (ع).

(²²⁶) «المعيار والموازنة» - الاسكافي ص 238.

الاشترى. يقول فيه: «... ولكنني آسى ان يلي امر هذه الامة سفهاؤها وفجّارها، فيتخذوا مالَ الله دولا²²⁷، وعبادته حولا (عبداً)، والصالحين حرباً (أي محاربين)، والفاسقين حرباً. فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام (أي الخمر)، وجلدَ حداً في الاسلام، وان منهم من لم يُسلم حتى رُضِحت له على الاسلام الرضائخ²²⁸»²²⁹.

أ _ الخليفة الاول:

لم يستمر ابو بكر في خلافته الا سنتين، أي من سنة 11 هـ الى سنة 13 للهجرة. وقد ابتداءً عهده بعد اجتماع السقيفة، وانشغل فيها بمواجهة الذين امتنعوا عن بيعته خصوصاً اهل بيت النبوة (ع): علي (ع) وفاطمة (ع) وبقيّة بني هاشم، والذين ترددوا في دفع الزكاة.

واهم ما تركت لنا خلافة ابي بكر من احداث هو: شكوى الزهراء (ع) ومظلوميتها ومظلومية علي (ع) وقد شرحناها في الفصول السابقة. ومقتل مالك بن نويرة من قبل خالد بن الوليد، ثم انتهاك حرمة امرأة مالك (ام تميم) من قبل خالد نفسه في نفس الليلة التي قُتل فيها. وهو انحطاط لم يهبط اليه أي من العرب.

وكان مالك بن نويرة قد تردد في دفع الزكاة. فقد كان والياً على صدقات قومه بني يربوع من قبل النبي (ص). ولما بلغته وفاة رسول الله (ص) امسك عن اخذ الصدقة من قومه وقال لهم: تربصوا بما حتى يقوم قائم بعد النبي (ص) ونظر ما يكون من امره. وقيل ان حجته واصحابه في تأجيل دفع الزكاة اهم فسروا الآية التي وردت في سورة التوبة: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)²³⁰، بأنها تتضمن ضرورة صلاة النبي (ص) عليهم صلاة تكون سكناً لهم، ليأخذ صدقة من اموالهم يزكيهم بها. وتلك الصفات لا تتحقق الا في النبي او من يمثله تمثيلاً شرعياً. أي اهم ترددوا في اعطاء الزكاة الى غير النبي (ص) الى ان يثبت لهم وجود من يمثله. ولم يكن الخليفة الاول في رأيهم، يمثل النبي (ص) بحال.

ومن بشاعة تلك الجريمة التي ارتكبها خالد، فقد تجاوز الخليفة الاول عنه وقال: تأول خالد فأخطأ. بينما خاطبه عمر: يا عدو نفسه (!)²³¹ عدوت على امرئ مسلم فقتلته، ونزوت على امرأته... والله لنرجمك باحجارك. ولكنه لم يرجم لا باحجاره ولا باحجار المسلمين. بل حصل العكس، فقد استُبيحت

(227) دُولاً: جمع دُولة أي شيئاً يتداولونه بينهم.

(228) الرضائخ: جمع رضية، وهو شيء قليل يعطى للانسان يصانع به عن شيء يُطلب منه كالاجر. ورضخت له: اعطيت له.

(229) «فحج البلاغة» - كتاب 62 الى اهل مصر ص 581.

(230) سورة التوبة: آية 103.

(231) ويلاحظ في التعبير: يا عدو نفسه، وليس يا عدو الله.

نساء مالك بن نويرة. واقصى ما فعله الخليفة الاول وهو انه واده من بيت المال. وهو امرٌ ليس فيه وجه شرعي. لان الجناية _ القتل العمد والزنى _ كانت من قبل خالد بن الوليد، وقد وجب عليه القصاص، فلماذا يدفع المسلمون ثمنها؟

وبقيت مرارة السقيفة عالقة في نفوس المسلمين. وليس على السنة الناس عقال يربطها من رواية تصرفات بن الخطاب تجاه فاطمة (ع) حبيبة رسول الله (ص) وبيتها من جمع الحطب واحراق الدار. بمن فيها علي (ع) واصحابه وبنو هاشم وفاطمة والحسان (ع)، والفضائع التي ارتكبت تجاه ريحانة النبي (ص) الصديقة الطاهرة ام المعصومين (ع).

يقول الامام (ع) حول تلك الفترة المظلومة في احدى خطبه: «اما بعد، فان الله بعث محمداً نذيراً للعالمين ومهيماً على المرسلين. فلما مضى تنازع المسلمون الامر من بعده (ص). فوالله ما كان يلقي في روعي ولا يخطر ببالي ان العرب تُزعجُ هذا الامر من بعده (ص) عن اهل بيته، ولا انهم منحوه عني من بعده. فما راعاني الا انتيالُ الناس على فلان²³² يبايعونه. فأمسكتُ يدي حين رأيتُ راجعةَ الناس قد رجعت عن الاسلام... فخشيتُ ان لم أنصر الاسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكونُ المصيبةُ به عليّ اعظم من فوت ولايتكم التي انما هي متاعُ ايامٍ قلائل...»²³³.

ب _ الخليفة الثاني:

وانتقلت الخلافة بعد سنتين فقط من اجتماع السقيفة الى عمر بن الخطاب، وصدق علي (ع) حينما قال له: «احلب حلباً لك شطره واشدد له اليوم امره يردده عليك غداً». واستمرت الخلافة بيد عمر بن الخطاب عشر سنوات (13 _ 23 هـ). يقول الامام (ع) شارحاً الوضع: «اما والله لقد تقمصها ابن ابي قحافة، وهو ليعلم ان محلي منها محل القطب من الرحي. فسدلتُ دوئها ثوباً. حتى اذا مضى الاول لسبيله فادلى بها الى ابن الخطاب بعده. فصبرت على طول المدة وشدة المحنة. فوا عجباً بينما هو يستقيلها في حياته اذ عقدها لآخر بعد وفاته، لشد ما تشظرا ضرعيها»²³⁴.

(232) كناية عن الخليفة الاول.

(233) «فحج البلاغة» - كتاب 62 الى اهل مصر ص 580.

(234) تقمصها: جعله كالقميص مشتملة عليه، والضمير للخلافة، ولم يذكرها لوضوحها. فسدلتُ: ارحيت. مضى لسبيله: مات. وادلى بها: من: ادليت الدلو في البئر، أي ارسلتها. يقول تعالى: (ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام) سورة البقرة: آية 188 أي تدفعوها اليهم رشوة. وكان (ع) يرى ان العدول عنه في امر الولاية الى غيره احراج لها الى غير جهة الاستحقاق. وهذا الكلام من باب الاستعارة اللفظية.

استدعى ابو بكر قبل وفاته، عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان واستشارهما في موضوع تخليفه عمر بن الخطاب. فاشارا عليه بالقبول. وهذا الامر يثير عند العلماء والمفكرين كثيراً من الاسئلة الوجيهة، منها: كيف اوصى الخليفة الاول ولم يوص رسول الله (ص) _ بزعم قريش _ ؟ وهل كان الخليفة الاول احرص على شؤون الاسلام من النبي (ص)؟ واذا كان اعراض النبي (ص) عن قضية الولاية على المسلمين سنة، فهل يصح مخالفة تلك السنة عبر وصية الخليفة الاول لعمر بن الخطاب؟ وبالاجمال، فان القضية _ وبعد اربعة عشر قرناً _ لا تزال مورد نقاش وبحث. والمهم في الامر ان الخليفة الثاني _ باجتهاد منه _ قد خالف بعض موارد السنة النبوية الشريفة. ومن ذلك:

1 _ الطريقة التي تم فيها تقسيم الغنائم. قال الطبري في «تأريخه» ان الخليفة الثاني هو: «اول من دون للناس في الاسلام الدواوين، وكتب الناس على قبائلهم وفرض لهم العطاء»²³⁵. وتفصيل ذلك انه: «فرض للعباس بن عبد المطلب اثني عشر الف درهم. ولكل واحدة من زوجات الرسول (ص) عشرة آلاف درهم، وفضل عليهن عائشة بألفين. ثم فرض للمهاجرين الذين شهدوا بدرًا لكل واحد خمسة آلاف ولمن شهدها من الانصار اربعة آلاف.

وقيل: فرض لكل من شهد بدرًا خمسة آلاف من جميع القبائل. ثم فرض لمن شهد احدًا فما بعدها الى الحديبية اربعة آلاف. ثم فرض لكل من شهد المشاهد بعد الحديبية ثلاثة آلاف. ثم فرض لكل من شهد المشاهد بعد رسول الله (ص) ألفين، وألفاً وخمسمائة، وألفاً واحداً، الى مائتين. قال: «ومات عمر على ذلك»²³⁶. واذاف البيهقي: «ولاهل مكة من كبار قريش مثل ابي سفيان بن حرب ومعاوية بن ابي سفيان خمسة آلاف»²³⁷.

2 _ «غزا رسول الله (ص) خيبر في سنة سبع، فطاوله اهلها وماكثوه وقتلوا المسلمين. فحاصروهم رسول الله (ص) قريباً من شهر، ثم انهم صالحوه على حقن دمائهم... ثم قالوا لرسول الله (ص): ان لنا بالعمارة والقيام على النخل علماً فأقرنا، فأقرهم رسول الله (ص) وعاملهم على الشطر من الثمر... فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب اجلاهم وقسم خيبر بين من كان له فيها سهم من المسلمين»²³⁸.

(²³⁵) «تأريخ الطبري» ج 2 ص 22 - 23.

(²³⁶) «شرح فتح الباغة» ج 3 ص 154. و«فتوح البلدان» ص 550 - 565.

(²³⁷) «تأريخ البيهقي» ج 2 ص 153.

(²³⁸) «فتوح البلدان» ص 36.

3 _ «أتى رسول الله (ص) وادي القرى، فدعى أهلها إلى الإسلام، فامتنعوا عن ذلك وقاتلوا، ففتحها رسول الله عنوة. وترك النخيل والأرض في أيدي اليهود، وعاملهم على نحو ما عامل أهل خيبر. فقيل: إن عمر أجلى يهودها وقسمها بين من قاتل عليها»²³⁹.

إن «سيرة الشيخين» كانت متضاربة ولم تستند على دليل شرعي حتى تستطيع أن تصبح سنة يأخذ بها المسلمون. فقد اختلف أبو بكر وعمر في قضية فدك. فقد اغتصبها الأول من فاطمة (ع) بينما أرجعها الثاني إلى ذرية فاطمة (ع). واختلفا أيضاً في قضية خالد بن الوليد عندما قتل مالك بن نويرة ونزا على زوجته، فأراد الأول الاعراض عن القصاص وأراد الثاني انزال القصاص، ظاهراً. واختلفا أيضاً في منح قطع من الأراضي الزراعية الخصبة لبعض الصحابة. فمنح الأول ومنع الثاني لنفس الموضوع. وعلى أي تقدير، فإن «سيرة الشيخين» لم تحمل ابداً منشأً شرعياً أو عقلياً قابلاً للاخذ أو للتابع.

ج _ الخليفة الثالث:

يقول (ع): «حتى إذا مضى [الثاني] لسبيله جعلها في جماعة زعم أني أحدهم. فإني لله وللشورى متى اعترض الريب في مع الأول منهم، حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر!!»²⁴⁰.

روايات انتخاب الخليفة الثالث:

وفي قضية انتخاب الخليفة الثالث ثلاث روايات لا يجد المؤرخ أو الفقيه محيصاً عن النظر إليها وتفحصها وتحليلها، وهي:

الرواية الأولى:

نقلها ابن الأثير، قال: استدعى عمر بن الخطاب قبيل وفاته: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام. وقال لهم: «إذا متُّ تشاوروا ثلاثة أيام، وليصل بالناس صهيب، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم. وليحضر عبد الله بن عمر مشيراً، وطلحة بن عبيد الله²⁴¹ شريككم في الأمر. فإن قدم الثلاثة فاحضروه أمركم.

²³⁹ (المصدر السابق) ص 47.

²⁴⁰ (نسخ البلاغة) - خطبة 3 ص 37.

²⁴¹ (وكان غائباً عن المدينة آنذاك).

وقال لابي طلحة الانصاري: إختبر خمسين رجلاً من الانصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم. وقال للمقداد بن الاسود: اذا وضعتوني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم. فان اجتمع خمسة وابي واحد فاشرخ رأسه بالسيف. وان اتفق اربعة وابي اثنان فاضرب رؤوسهما. وإن رضى ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً، فحكّموا عبد الله بن عمر، فإن لم يرضوا فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف.

واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس.

فلما مات عمر واخرجت جنازته صلى عليه صهيب، فلما دُفن، جمع المقداد اصحاب الشورى، وطلحة غائب، فقال عبد الرحمن: أيكم يخرج منها نفسه على ان يوليها افضلكم؟ فلم يجبه احد، فقال: فأنا انخلع منها.

فقال عثمان: انا اول من رضى، وقال القوم: قد رضينا، وعليّ ساكت، فقال: ما تقول يا ابا الحسن؟ قال (ع): أعطني موثقاً لتؤثرن الحق، ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم، ولا تألوا الامة نصحاً²⁴². وبعد نقاش مرير بين الحاضرين نظر عبد الرحمن بن عوف الى علي بن ابي طالب (ع) وقال: «أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين ابي بكر وعمر، فقال علي (ع): بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي.

فعدل عنه الى عثمان، فعرض عليه ذلك، فقال: نعم. فعاد عليّ، فأعاد قوله... فعل عبد الرحمن ذلك ثلاثاً. فلما رأى علياً (ع) غير راجع عما قاله، وان عثمان ينعم بالاجابة صفق على يد عثمان وقال: السلام عليك يا امير المؤمنين.

وقيل ان علياً (ع) قال: والله ما فعلتها الا لانك رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه²⁴³. وصریح كلام الامام (ع) يدل على ان الاتفاق بين الخليفين الاول والثاني كان قائماً حول الخلافة، وان ابن عوف كان هدفه ولاية عثمان لا ولاية علي (ع).

(²⁴²) «الكامل في التاريخ» - ابن الاثير ج 3 ص 35 - 36.

(²⁴³) «شرح فتح البلاغة» ج 1 ص 50 - 67.

الرواية الثانية:

رواية الطبري وفحواها ان عمر لما طُعن، كان قد تردد في امر الاستخلاف، وندم على وفاة ابي عبيدة وسالم. وقبل تعيينه رهط الشورى، قال لبعض عائديه من الصحابة وفيهم علي (ع): «اني كنت قد اجمعت قبل مقالي لكم ان انظر فأولي رجلاً امركم هو احراكم ان يحملكم على الحق، و اشار الى عليّ. ورهقتني غشية فرأيت رجلاً دخل جنة ثم غرسها. فجعل يقطف كل غضة ويانعة فيضمه اليه، ويصيره تحته. فعلمت ان الله غالب على امره، ومتوف عمر، فما اريد ان اتحملها حياً وميتاً. عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله: انهم من اهل الجنة! سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم، ولست مدخله. وما اظن ان يلي الامر الا احد هذين الرجلين: علي وعثمان، فان ولي عثمان فرجل فيه لين. وان ولي علي ففيه دعاية واحرى به ان يحملكم على طريق الحق»²⁴⁴.

الرواية الثالثة:

رواية المعتزلي وهي ان عمر كان قد استدعى قبل ان يبت في امر الشورى كلاً من الزبير وطلحة _ قبل سفره من المدينة _ وسعد وعبد الرحمن وعلي وعثمان، وقال: «ما انت يا زبير!... يوماً انسان ويوماً شيطان». وما انت يا طلحة! فقد مات رسول الله ساحطاً عليك بالكلمة التي قتلها يوم انزلت آية الحجاب. وفي رواية أخرى: الست القاتل: ان قبض محمد انكح ازواجه من بعده، فما جعل الله محمداً أحقّ ببنات اعمامنا منا! فأنزل الله فيك قوله: (... وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً...)²⁴⁵. قال شيخنا ابو عثمان الجاحظ: لو قال لعمر قائل: انت قلت: ان رسول الله مات وهو راضٍ عن الستة فكيف تقول لطلحة: انه مات ساحط عليك للكلمة التي قتلها، لكان قد رماه بمشاقصة²⁴⁶. ثم اقبل عمر على سعد فقال: اما انت فصاحب مقنب²⁴⁷ من هذه المقانب تقاتل به وصاحب قنص وقوس، وما «زهرة» والخلافة وامور الناس.

²⁴⁴ («تاريخ الطبري» ج 5 ص 34 - 35).

²⁴⁵ سورة الاحزاب: آية 53.

²⁴⁶ المشقّص من النصال: ما طال وعرض. وقال الشاعر: سهامٌ مُشاقِصُها كالحرابِ (الصحاح ج 2 ص 1043).

²⁴⁷ المقنّب: شيء يكون مع الصائد يجعل فيه ما يُصيده (الصحاح ج 1 ص 206).

ثم اقبل على عبد الرحمن فقال: ليس يصلح هذا الامر لمن فيه ضعف كضعفك وما «زهرة» وهذه
الإمرة!

ثم اقبل على عليّ (ع) فقال: لله انت لولا دعاة فيك²⁴⁸! اما والله لان وليتهم لتحملنهم على الحق
الواضح²⁴⁹.

الدلالات:

ويمكننا الآن جمع الدلالات التي دلت عليها الروايات في النقاط المختصرة التالية:

- 1 _ هل يجيز القرآن ضرب اعناق رجال من المسلمين لمجرد انهم يجتهدون برأي يخالف الرهط الذي كان فيه عبد الرحمن بن عوف؟ والجواب على ذلك واضحاً وقطعي، وهو انه لا يجيز ذلك.
- 2 _ لم نقرأ أن علياً (ع) كانت فيه دعاة تمنعه من الولاية، ولم تذكر المصادر انه كان كثير المزاح. بل على العكس فقد كان الامام (ع) مهاباً وقرأً شديد التواضع والحياء.
- 3 _ اذا كان في الستة من هو شيطان يوماً وانسان يوماً، ومن نزل فيه قرآن يدينه، فكيف كان لهم الحق في تقرير مصير الخلافة على المسلمين؟
- 4 _ هل تكون الاحلام التي يراها الانسان في النوم حجةً ودليلاً على التعيين والابعاد، في أمر مهم وخطير كأمر الولاية؟ وهذا الامر لم يدع به النبي (ص)، فكيف استقام للآخرين الادعاء به؟
- 5 _ سيرة الشيخين اصبحت امتداداً للسنة النبوية والقرآن. كيف استقام ذلك؟ ولم يرو عن رسول الله (ص) ما يصرح بذلك او يلمح؟

الخليفة الثالث وامتيازات السلطة:

قال الامام (ع): «الى ان قام ثالوث القوم²⁵⁰ نافجاً حِضْنِيهِ²⁵¹ بين نثيلهِ²⁵² ومعتلفهِ²⁵³، وقام معه بنو امية يخضمون²⁵⁴ مال الله خضم الابل نبتة الربيع. الى ان اتكتث (انتقض) عليه فتله، وأجهز عليه عمله (أي

(²⁴⁸) الدُعَاة: المزاح. وقد دَعَبَ فهو دَعَابٌ لَعَابٌ.

(²⁴⁹) «شرح موجع البلاغة» ج 3 ص 170.

(²⁵⁰) ثالوث القوم: عثمان بن عفان.

(²⁵¹) نافجاً حِضْنِيهِ: رافعاً لهما. ما بين الإبط والكشح. يقال للمتكير: جاء نافجاً حِضْنِيهِ.

(²⁵²) النثيل: الروث وقَدَّرَ الدواب.

(²⁵³) المعتلف: موضع العلف.

قتله)، وكَبِتَ به بطنته²⁵⁵. فما راعني الا والناس كعرف الضبع، يمثالون عليّ من كلّ جانب، حتى لقد وطىء الحسنان، وشقّ عطفاي²⁵⁶. مجتمعين حولي كربيضة الغنم، فلما نهضت بالامر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون²⁵⁷.

واول عمل قام به الخليفة الثالث هو: تعيين ذويه واقربائه من الامويين وآل ابي معيط مستشارين، وامراء على الامصار. وقد اختار افراداً معروفين بسيرتهم الغليضة في محاربة الاسلام ونيبه (ص) واهل البيت (ع). ومنهم:

أ _ الحكم _ ابو مروان وزير عثمان _ الذي خاض من فحش القول مع رسول الله (ص) ما يندى من ذكره الجبين، فنفاه النبي (ص) من المدينة الى الطائف²⁵⁸. قرّب عثمان الحكم، وعيّن ابنه مروان مستشاراً له ذا نفوذ عظيم.

ب _ ابن ابي سرح _ اخو عثمان من الرضاعة _ الذي ارتدّ بعد كتابة الوحي فأهدر النبي دمه. ولأه عثمان ولاية مصر.

ج _ الوليد بن عقبة بن ابي معيط الذي نزل فيه قرآن يصفه بالنفاق في قضية بني المصطلق. قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنياً فنبّهوا أن تُصيّبوا قوماً بجهالةٍ...) ²⁵⁹. فعينه عثمان والياً على الكوفة. وكان الوليد بن عقبة _ في عهد عثمان _ يشرب مع ندمائه ومغنيه من اول الليل الى الصباح. فلما اذن المؤذن للصلاة خرج منفصلاً في غلائله، فتقدم الى المحراب في صلاة الفجر، فصلّى بهم اربعاً، وقال: تريدون أن ازيدكم؟ وقيل: انه قال في سجوده وقد أطال: اشرب واسقني. فقال له بعض من كان خلفه في الصف الاول: والله لا أعجب الا ممن بعثك الينا والياً وعلينا اميراً.

وخطب الوليد الناس، فحصبه الناس بحصباء المسجد، فدخل قصره يترنح ويتمثل بأبيات تأبط شرّاً:

ولستُ بعيداً عن مدام وقينة ولا بصفا صلد عن الخير معزل
ولكنني اروي من الخمر هامتي وأمشي الملا بالساحب المتسلسل

وقيل انه تقيّاً في محراب مسجد الكوفة بعد ان قام ليصليّ، فقرأ بهم رافعاً صوته:

علق القلب الربابا بعدما ما شابت وشابا

(²⁵⁴) الخضم: أكل بكل الفم. وضده القضم وهو: أكل بأطراف الاسنان. والمعنى هو أنّهم على قدم عظيمة من التهم وشدة الاكل وامتلاء الافواه.

(²⁵⁵) البطنة: الاسراف في الشبع.

(²⁵⁶) العطفان: الجانبان من المنكب الى الورك. والمعنى: خدش جانباي لشدة الاحتكاك منهم والازدحام. وعرف الضبع ثخين، ويضرب به المثل في الازدحام.

(²⁵⁷) «فحج البلاغة» - خطبة 3 ص 38.

(²⁵⁸) «انساب الاشراف» ج 5 ص 27.

(²⁵⁹) سورة المحجرات: آية 6.

فشخص اهل الكوفة الى عثمان فأخبروه بخبره وشهدوا عليه بشرب الخمر، فأتى به ، فأمر رجلاً من المسلمين ان يضربه الحدّ، فلما دنا منه قال: نشدتك الله وقرابتي، فتركه. فخاف ان يعطلّ الحد فقام اليه فحدّه بيده.

وخرج رهط (آخر) من اهل الكوفة الى عثمان في امر الوليد، فقال: أكلما غضب رجل على اميره رماه بالباطل!! فاستجاروا بعائشة بنت ابي بكر، وأصبح عثمان فسمع من حجرتها صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة. فقال: اما يجد فساق العراق ومراقها ملجأً الا بيت عائشة!!²⁶⁰.

اما على الجانب المالي، فقد كان عثمان سخياً على اقربائه وحاشيته. وكان سخاؤه من بيت مال المسلمين. فقد اغدق العطايا دون حساب. فقد منح مروان بن الحكم (زوج ابنته ام ابان) وابنته عائشة بنت عثمان (زوجة الحارث بن الحكم اخي مروان) يوم العرس مائتي الف درهم. وهو مبلغ ضخّم بحساب ذلك الزمان. فقد كان ثوب الامام علي (ع) بخمسة دراهم. وعليك حساب الفارق.

فاستكثر بن ارقم _ وهو خازنه على بيت المال في المدينة _ ذلك. فجاءه مستقيلاً. فقال عثمان: انما خازن لنا، فما حملك على ما فعلت؟ فقال ابن ارقم: كنت اراني خازناً للمسلمين. وانما خازنك غلامك. والله لا الي لك بيت المال ابداً. وجاء بالمفاتيح فعلقها على المنبر²⁶¹.

وأعطى عثمان خمس الغنيمة التي غنمها المسلمون في افريقيا الى مروان بن الحكم.

واعطى ابنه الحارث ثلثمائة الف درهم.

واعطى عبد الله بن خالد بن اسيد الاموي ثلثمائة الف.

واعطى كل واحد من الذين وفدوا مع عبد الله بن خالد مائة الف.

واعطى طلحة بن عبد الله مائة الف.

واعطى سعيد بن العاص مائة الف.

وزوج ثلاثاً او اربعاً من بناته لنفر من قريش، فأعطى كل واحد منهم مائة الف دينار²⁶².

ومما انكروا على عثمان انه ولى الحكم بن ابي العاص صدقات قضاة فبلغت ثلثمائة الف درهم فوهبها

له حين أتاه بها.

(²⁶⁰) «مروج الذهب» ج 2 ص 224.

(²⁶¹) تجد الكثير من ذلك في المصادر التاريخية. منها: «انساب الاشراف» ج 5 ص 59.

(²⁶²) «انساب الاشراف» ج 5 ص 27 - 28، 52.

وإذا كان سواد المسلمين في تلك الفترة يعيش على الطوى ويحرم من ابسط قواعد العيش الكريم، كان ازلام الخليفة الثالث يستأثرون بأموال المسلمين وحقوقهم.
وقد بلغ الترف مبلغه عند هؤلاء. فاقتنوا الضياع والدور.
فقد بنى الزبير بن العوام داره في البصرة تنزلها التجار وارباب المال، وابتنى دوراً بمصر والكوفة والاسكندرية، وحلّف عند موته الف فرس والف امة وخمسين الف دينار.
وابتنى طلحة بن عبد الله التيمي داره المشهورة في الكوفة، وكانت غلّته من العراق كلّ يوم الف دينار.
وابتنى عبد الرحمن بن عوف الزهري داره ووسعها، وكان على مربطه الف فرس، وله الف بعير، وعشرة آلاف من الغنم.
وكانت تلك السياسة المالية والادارية في تقريب بني امية وتسديدهم بالمال والقوة اثراً من آثار اجتماع السقيفة. وكانت تلك السياسة مؤدية بالنتيجة الى تكوين الطبقة الغنية المسرفة التي كانت ترى من الامتياز لنفسها ما ليس لغيرها.

موقف عثمان من صحابة رسول الله (ص):

وبينما كان هذا موقف عثمان من بطائه وحاشيته من الاقرباء، كان له موقفاً غليظاً من صحابة رسول الله (ص) كعبد الله بن مسعود، وابي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر. فقد اعتدى عثمان على هؤلاء الصحابة الصالحين بالضرب والنفي والاهانة.

1 _ روى البلاذري قصة عزل عثمان لعبد الله بن مسعود عن بيت المال في الكوفة. فقال: «لما قدم الوليد بن عقبة والياً على الكوفة ألقى ابن مسعود على بيت المال. فاستقرضه مالا فأقرضه. ثم انه اقتضاه اياه. فكتب الوليد في ذلك الى عثمان. فكتب عثمان الى عبد الله بن مسعود: انما انت خازن لنا، فلا تعرض للوليد في اخذ المال. فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال: كنت اظن اني خازن للمسلمين. فأما اذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك.

وأقام بالكوفة بعد إلقائه مفاتيح بيت المال.

فكتب الوليد بذلك الى عثمان. فكتب اليه عثمان يأمره باشخاصه وشيعة اهل الكوفة فأوصاهم بتقوى الله ولزوم القرآن. فقالوا له: جزيت خيراً. فلقد علمت جاهلنا، وثبت علمنا، وقرأتنا القرآن، وفقهتنا في الدين.

وقدم ابن مسعود المدينة وعثمان يخطب على منبر الرسول (ص). فلما رآه قال: انه قد قدمت عليكم دويبة سوء. فقال ابن مسعود: لست كذلك ولكنني صاحب رسول الله (ص).
ثم أمر عثمان به فأخرج من المسجد اخراجاً عنيفاً وضرب به عبد الله بن زمعة الارض. وقيل: كسروا اضلاعه، ولم تقرّ عين الخليفة حتى قطع العطاء عنه.
فأقام عبد الله بن مسعود بالمدينة لا يأذن له عثمان في الخروج منها الى ناحية من النواحي. حتى توفي قبل مقتل عثمان بستين²⁶³.

2 _ وراع ابو ذر لاغفاري اسراف عثمان وتبديده اموال المسلمين على ذوي قريبه فأنكر عليه ذلك مستشهداً. فشكى مروان بن الحكم الى عثمان مقالة ابي ذر هذه، فأرسل عثمان اليه مولاه ينهاه. فقال ابو ذر: لئن ارضي الله بسخط عثمان احبّ اليّ من ارضي عثمان بسخط الله. فنفاه عثمان الى الربذة فمات هناك.

وعندما بلغ عثمان موت ابي ذر بالربذة قال: رحمه الله . فقال عمار بن ياسر: نعم. فرحمه الله من كل انفسنا. فقال له عثمان: يا عاضّ أير ابيه اتراني ندمت على تسييره!
وأمر فدفع في قفاه وقال: الحق بمكانه. فلما هبياً للخروج جاء بنو مخزوم الى عليّ فسألوه ان يكلم عثمان فيه.

فقال له علي (ع): يا عثمان اتقّ الله فانك سيرت رجلاً صالحاً من المسلمين فمات في تسييرك. ثم انت الآن تريد ان تنفي نظيره.

وجرى بينهما كلام حتى قال عثمان لعليّ: أنت احق بالنفي منه.

فقال علي (ع): رم ذلك ان شئت.

واجتمع المهاجرون فقالوا: ان كنت كلّما كلّمك رجل سيرته ونفيته، فان هذا شيئاً لا يسوغ. فكفّ عن عمّار²⁶⁴.

3 _ عمار بن ياسر: وكتب جماعة من اصحابه الى عثمان كتاباً عدّوا فيه احداث عثمان وخوفوه ربه واعلموه أنهم موائبوه ان لم يقلع، فأخذ عمار الكتاب وأتاه به فقرأ سطرّاً منه.
فقال له عثمان: أعليّ تقدم من بينهم؟

(²⁶³) «انساب الاشراف» ج 5 ص 36 - 37، 54 - 55.

(²⁶⁴) م. ن. - ج 5 ص 54 - 55.

فقال عمار: لأني انصحهم لك.

فقال: كذبت يا ابن سمية. فقال: أنا والله ابن سمية وابن ياسر.

فأمر غلमानه فمدّوا يديه ورجليه، ثم ضربه عثمان برجله وهي في الخفين على مذاكيره فأصابه الفتق. وكان ضعيفاً كبيراً، فغشي عليه²⁶⁵.

وهكذا كان اسراف عثمان في ضرب صحابة النبي (ص)، والاستهتار بأموال المسلمين، وتولية الطلقاء واهل الفجور على مصالح المسلمين.

وبالاجمال، فقد عاب المسلمون على عثمان ردّ عمّه الحكم بن ابي العاص واهله الى المدينة وكان النبي (ص) قد أخرجهم منها. وكان الحكم يؤذي النبي (ص) أشدّ الايذاء وأقبحه. وأولى عثمان الحارث بن الحكم على شؤون المدينة فأسرف على الناس ولم يكن أميناً. وأولى الوليد بن عقبة الكوفة وكان شارباً للخمر فاسقاً. واختصّ عثمان بمروان بن الحكم فأعطاه وحباه واتخذة لنفسه وزيراً ومشيراً.

الثورة على عثمان:

وممن ألب على عثمان وحرّض عليه عمرو بن العاص حين عزله الخليفة الثالث عن مصر. يقول عمرو بن العاص عن بعض ما فعله في التآليب على عثمان وهو في طريقه الى فلسطين: والله اني كنت لألقى الراعي فأحرّضه على عثمان. وكان قبل ذلك، يهدد عثمان حين حضر الحصار الاول قائلاً: انك يا عثمان ركبت بالناس النهاير. فاتق الله وتب اليه. فقال عثمان: يا ابن النابغة وإنك ممن يؤلب علي الطغام لأني عزلتك عن مصر.

فخرج الى فلسطين فأقام بها في ماله هناك، وجعل يحرّض الناس على عثمان حتى رعاة الغنم. فلما بلغه مقتله قال: انا ابو عبد الله، اني اذا حككت قرحة نكأتها²⁶⁶. أي ادميتها، يريد انه مهد للفتنة والثورة ضد عثمان فاحكم التمهيد وأوصل الامر الى نهايته.

وخرجت عائشة بقميص النبي (ص)، فقالت: للناس: «هذا قميص رسول الله لم يبل وعثمان قد أبلى سُنّته. ثم تقول: اقتلوا نعثلاً. قتل الله نعثلاً». وكانت من اشد نساء النبي (ص) انكاراً على عثمان.

(²⁶⁵ م. ن. - ج 5 ص 49)

(²⁶⁶ م. ن. - ج 5 ص 74)

ولما أخذ الامر يتفاقم على الخليفة الثالث، واختلَّ الامر السياسي عليه سنة 34 هـ، جمع امراءه: معاوية بن ابي سفيان، وعبد الله بن ابي سرح، وعبد الله بن عامر، وسعيد بن العاص ليستشيرهم في الامر وما ينبغي اتخاذه.

فلما التأمت الجماعة خاطبهم عثمان: إن لكل امام وزراء، وانكم وزرائي.
فاما معاوية فطلب ان يرد الولاية الى امصارهم، وان يعتمد عليهم في ضبط امصارهم، كلُّ حول مصره.
واما سعيد بن العاص فأشار عليه ان يقتل قادة المعارضة وزعماء الفتنة (!).
واما عبد الله بن ابي سرح فأشار عليه ان يترضى الناس ويعطيهم من بيت المال ويأخذهم عن طريق اطماعهم.

واما عبد الله بن عامر فأشار عليه بأن يرسل الناس الى الجهاد ويشغلهم بالحرب ويطيل اقامتهم بالثغور.
وهكذا كانت الآراء منصبّة على عدم معالجة الامر معالجة شرعية دينية تضمن حقوق الناس، وتبعد حاشية السوء، وتُرجع الامة الى دينها. ولم يكن عثمان بافضل من امرائه، فقد صبّ الزيت على النار في خطابه في المتذمرين. فقال: «اما بعد، فان لكل امة آفة وان لكل نعمة عاهة.

وإن آفة هذه الامة وعاهة هذه الملة قوم عيابون طعانون.
اما والله يا معشر المهاجرين والانصار لقد عبتم عليّ أشياء ونقمتم في امور قد اقرتم لابن الخطاب بمثلها. ولكن وقمكم وقما. اما والله لانا اكثر من ابن الخطاب عدداً».

وكان الاولى به ان يتعد عن تلك اللغة التهديدية، ويتوجه نحو ذكر وجوه الاصلاح والتغيير التي كان يتوق الناس لسماعها. وهكذا ازداد التذمر، وانتشر بين صفوف الجيش في الثغور.

فهذا عبد الله بن ابي سرح هاجم اسطول الروم في موقعة ذات الصواري. ولكن ما قيمة النصر اذا جاء عن طريق انسان نزل القرآن بكفره؟ فكان النصر باباً للانتقاد. فابن ابي حذيفة افسد عليه نشوة النصر بما كان يقوله للمحاربين: «انكم تسعون الى الجهاد _ والجهاد وراءكم في المدينة _ حيث يقيم عثمان فيسوس الامة على غير كتاب الله، وسنة رسوله، وسياسة صاحبيه. ويعزل اصحاب رسول الله (ص) من العمل، ويولي امور المسلمين جماعة من الفساق واصحاب الجون.

انظروا الى واليكم وقائدكم في الجهاد انه نزل القرآن بكفره وأهدر النبي (ص) دمه. ولكن عثمان يوليه امركم على ذلك لانه اخوه في الرضاة».

وهكذا كانت المعارضة لحكم عثمان معارضة خفية تجري بها الالسنة ولا يُعرف لها صاحب. وعندما وسع عثمان مسجد النبي (ص)، قال الناس: «يوسع مسجد النبي ويترك سنته».

وقد دفع الاضطراب الذي حصل في بعض الاقاليم اصحاب الرأي الى ارسال الوفود الى عاصمة الخلافة لمقابلة عثمان والتداول معه لحل المعضلة. ولكن تصرفات مروان بن الحكم، الذي كان مستشاراً للخليفة وموضع سره، قد افسد الامر. فرجعت الوفود الى اقاليمها وهي على قناعة باستحالة اصلاح الوضع. ولكن مؤامرات مروان لم تقف عند حد، فاحتلق على لسان الخليفة كتابه المعروف من اجل الايقاع بوفد مصر. واطلع هؤلاء على المؤامرة قبل ان تطأ اقدامهم ارض مصر فانقلبوا راجعين²⁶⁷ ... فنار الناس على عثمان فقتلوه.

مبايعة الامام (ع):

يصف الامام (ع) الوضع قبل مبايعته وبعدها في خطبة له تُعرف بالشقشقية:

«أما والله لقد تميمصها (لبسها كالقميمص) فلان، وانه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحا، ينحدر عني السيل، ولا يرقى الي الطير، فسدت (ارخيت) دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً (أي ملت عنها)، وطفقت ارتني بين أن أصول بيد جذاء (مقطوعة)، أو اصبر على طحية (ظلمة) عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤتم حتى يلقى ربه.

فرايت أن الصبر على هاتا أحجى (ألزم)، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجاً (أي ما يعترض به البلعوم من عظم ونحوه)، أرى تراثي نهباً، حتى مضى الأوّل لسبيله، فأدلى بها الى فلان بعده.

ثم تمثّل بقول الاعشى:

شتان ما يومي على كورها²⁶⁸ ويوم حيان أخي جابر

فيا عجباً!! بينا هو يستقبلها في حياته (أي يطلب اعفائه منها) إذ عقدها لآخر بعد وفاته _ لشدة ما تشطراً ضرعيها (أي اقتسما ثديي الناقة)! فصيرها في حوزة حشناء، يغلظ كلمها (جرحها)، ويخشن مسها، ويكثر العثار (السقوط) فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة (ما ليست بذلول من الابل)، إن

²⁶⁷ لما صار المصريون بأيلة راجعين من عثمان مرّ بهم راكب انكروا شأنه فأخذوه، فاذا هو غلام لعثمان على جمل له معروف. وكان عثمان يحج عليه. ففتشوه فوجدوا معه قصة من رصاص فيها صحيفة عليها خاتم عثمان. ففتحوا الصحيفة فاذا فيها كتاب من عثمان الى عبد الله بن سعد عامله على مصر فيه: اذا قدم عليك فلان وفلان، وفلان فاضرب اعناقهم، وفلان وفلان فاقطع ايديهم وارجلهم... فكروا راجعين.

فاقرعوا الكتاب اصحاب النبي (ص)، فعاتب قوم عثمان على ذلك. فقال: أما الخط فخط كاتي مروان، واما الخاتم فخاتي. والله ما امرت بذلك... فقال القوم: ان كنت كاذباً فلا امامة لك، وان كنت صادقاً فليس يجوز ان يكون اماماً من كان بهذه المنزلة من الغفلة (الاصابة في تمييز الصحابة - ابن حجر العسقلاني ج 2 ص 455-456).

²⁶⁸ الكور: الرجل او هو مع أداته.

أَشْنَقَ لَهَا حَرَمٌ²⁶⁹، وان أسلس لها تقحّم (أي ان ارخى رمى نفسه بالهلكة)، فَمُنِّيَ النَّاسُ (اصيبوا) _ لعمرُ الله _ بَخْبِطٍ (سير على غير هدى)، وشِمَاسٍ (ابا الفرس على راحبه)، وتلونٍ واعتراضٍ. فصبرتُ على طولِ المدّة، وشِدَّةِ المحنة، حتى اذا مضى لسبيله جعلها في جماعةٍ زعمَ أنّي أحدهم. فيا لله وللشورى! متى اعترضَ الريبُ فيّ من الاولِ منهم، حتى صرتُ أقرنُ الى هذه النظائر (المشابهين) لكنني أسففتُ (دنوت من الارض) اذ أسفوا، وطرتُ إذ طاروا، فصغا (مال) رجلٌ منهم لضغنه (حقده)، ومالَ الآخرُ لصهره، مع هُنٍ وهِنٍ (اغراض اخرى).

الى ان قام ثالثُ القوم، نافجاً حِضْنِيهِ (رافعاً ما بين الابط والکشح، يقال ذلك للمتکبر) بين نثليه (روث الدواب) ومعتلفه (موضع العلف)، وقام معهُ بني ابيه يَحْضُمُونَ (يأكلون) مالَ اللهِ حِضْمَ الابْلِ نبتةَ الربيع، الى ان انتكثَ عليه فتلُهُ (انتقض)، واجهزَ عليه عمله (ثم قتله)، وكبت به بطنته (هوت به تخمته). فمما راعني إلا والناسُ اليّ كَعُرْفِ الضَّبِّعِ (من كثرة الزحام)، يَنَاطِلُونَ (يتتابعون) عليّ من كُلِّ جانبٍ، حتى لقد وُطِيَءَ الحسنان، وشُقَّ عطفاي (خُدش جانباه من الاصطكاك)، مجتمعين حولي كريبضة الغنم.

فلما نهضتُ بالأمرِ نكثت طائفةً (اهل الجمل)، ومرقت اخرى (اهل النهروان)، وقسط آخرون (معاوية واصحابه)، كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه يقول: (تلك الدارُ الآخرةُ نجعلها للذين لا يريدون علوًّا في الأرضِ ولا فساداً والعاقبةُ للمتقين)²⁷⁰، بلى! والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في اعينهم، وراقهم زبرجها (جوهرها)²⁷¹.

(²⁶⁹) اشنق البعير: كفه بزمامه حتى ألصق ذفره (العظم الناتئ) خلف الاذن) بقادمة الرجل. وخرم: قطع.

(²⁷⁰) سورة القصص: آية 83.

(²⁷¹) «فحج البلاغة» - خطبة رقم 3 ص 35.